مذاق الصبر

محمد عيد العريمي

تم وضع هذا الكتاب في الموقع بعد موافقة المؤلف

أطفال الخليج
مركز دراسات وبحوث المعوقين
www.gulfkids.com

مذاق الصبر

اهداء
نبذة عن الكتاب
تقديم: د. محمد الذهب
توطئة

مذاق الصبر - الجزء الأول

- صور لم تبرح ذاكرتي
- الكرسي المتحرك
- عزومة شاي
- اليأس والسأم
- لم أحسن الظن
- التصالح مع الاعاقة
- الانطباعات المقولبة
- لست بطلا ولا اطلب بطولة
- هواجس الفقر والموت
- عزلة ليست من اختياري
- معوَّقون لا معوقين
- تكافؤ الفرص
- ذوي الاحتياجات الخاصة
- المعاشرة الزوجية
- العمل
- السيارة
- التبعات الصحية للإعاقة
- ملخص الجزء الأول

مذاق الصبر - الجزء الثاني - الريحان والدخان

- توطئة
- عوض: عبق الطفولة
- وطني الأكبر
- عبق لا يزول من الذاكرة
- الوجه الآخر للشمس
- الشعلة التي أضاءت الصحراء!
- المدينة
- الريحان والدخان
- البرزة
- تجليات الجنون
- الشمروخ

- ود مطر
- الحرف والعصا
- التوفة والمقراع
- دمعة
- سوق المسباخ
- سكة البنايين
- صور
- كلمة أخيرة

المؤلف في سطور

الاسم الكامل: **محمد عيد العريمي**

ولد في عام 1954 بوادي المر بالمنطقة الشرقية في سلطنة عمان.
أنهى دراسته الأساسية متنقلا بين مدن الخليج العربي :صور، مسقط، الخبر، الكويت، أبو ظبي، الكويت مرة ثانية، ثم الدوحة.
تابع دراسته الجامعية في الولايات المتحدة الأمريكية حيث نال شهادة البكالوريوس في الهندسة الصناعية في عام 1981.
التحق للعمل بشركة تنمية نفط عمان وتعرض لحادث سير أثناء توجهه إلى موقع عمله بحقول النفط في الصحراء العمانية وأسفر عن إصابته بشلل رباعي.
واصل بعد تأهيله الصحي العمل في الشركة ولا يزال.

ص. ب: 211 ، رمز بريدي: 116
مسقط، سلطنة عمان

نبذة عن الكتاب

صدر عن دار الفارابي للنشر في بيروت، عام 2001. يقع العمل في فصلين وتجاوز عدد صفحاته 230 من القطع المتوسط.

في الجزء الأول الذي حمل عنوان الكتاب "مذاق الصبر" "يتناول المؤلف تجربته مع الإعاقة في كتابة أقرب ما تكون للسيرة الذاتية بدءا من تعرضه للحادث الأليم وما جرى له في المستشفى والآلام النفسية التي افترسته وعلاقته الجديدة بمن حوله ورحلة التأهيل الشاقة وما يجري له من تغيرات وتحولات عميقة في داخله وهو يكتشف حالته الجسدية الجديدة ويعيد اكتشاف العالم والناس على ضوء هذه الحالة". ثم ينتقل، بعد فترة التأهيل الصحي والمهني، إلى الحديث عن التأقلم أو كما سماها "التصالح" مع الإعاقة وتبعاتها النفسية والاجتماعية والصحية، حيث يقول: "لقد أخلت الإعاقة بحياتي على كافة مستوياتها: الصحية، الاجتماعية، الزوجية، والوظيفية. وسواء قبلت وضعي الجديد كمعوق أو رفضته.. نسيته أو تجاهلته، كان لا سبيل أمامي سوى التصالح مع الإعاقة وقبول شروطها والتعايش مع تبعاتها مهما كانت قاسية. وكان عليّ إعادة بناء حياة جديدة على أنقاض أخرى تحطمت، وبناء أحلام أخرى في إطار الحدود التي يفرضها وضعي الصحي الجديد."

ويتناول الجزء الثاني من الكتاب الذي حمل عنوان "الريحان والدخان" سيرة مرحلة من حياة قرية بدوية ومدينة ساحلية عاش فيهما المؤلف طفولته: وادي المر ومدينة صور. وقد استهل الكاتب هذا الجزء بمدخل نوهه فيه أن محاولته استحضار مشاهدات مضى عليها أكثر من ثلاثة عقود دون الاستعانة بمراجع مكتوبة لن تكون سوى تداخل بين الواقع والمتخيل ..بين الحكاية والرواية! وتعرض في هذا الجزء لصور راءها في طفولته وصباه رسمها في مشاهد بانورامية ركزت على بعض المظاهر الاجتماعية في البادية العمانية التي فتح فيها عيناه على صفاء سمائها وخواء أرضها.. على سهوبها القاحلة وفيافيها الشاسعة .فهناك سهر على ضوء القمر ونام تحت فوانيس النجوم.. تطبع بأخلاق الصحراء وعادات البدو وتعلم الإخلاص للقبيلة، وعرف البادية: خصبها وجدبها.. أعرافها وتقاليد أهلها.. حكاياتها وأساطيرها.

ومن هناك ينتقل إلى المدينة حيث طغت الدهشة على ملامساته الأولى فانساق وراءها يستكشف المكان والسكان أيضا. ويتعرض الكاتب لعدد من رموز سوق المدينة فيقول عن أحدهم "يداوي احباطات الذات وخذلان الناس بشق طريق آخر يعود به إلى أزمنة غابرة تكومت بيارق عنفوانها وطال انتظار راياتها في مخازن جمعت ـ بين ما جمعت ـ نبالا وسيوفا يرجع تاريخ بعضها إلى زمن الراشدين وأخرى إلى زمن قريب ترفع للتطريب والعبث، فينتزع من بينها واحدة سوداء تحمل ختم الأيوبى، ويعود بها للاحتفال بانكسار غطرسة القوة على أجساد المستضعفين وجوع الفقراء."

عن هذا الكتاب قال الأديب والناقد العراقي المعروف الدكتور ضياء خضير في ورقة نقدية نشرت في جريدة الخليج:" هذا كتاب فريد في بابه، يحتل، أو ينبغي أن يحتل، مكانة متميزة بين الأعمال الأدبية الخليجية والعربية المشابهة."

مذاق الصبر

الجزء الأول

توطئة الجزء الأول

عندما خطر لي كتابة تجربتي مع الإعاقة، توقفت طويلاً.. فكرت كثيراً.. واستشرت بعض الأصدقاء. وكان السؤال، أو بالأحرى الأسئلة: لماذا اكتب؟ وماذا اكتب؟ ولمن اكتب؟ فأنا، والكتابة ليست شرفاً ادعيه، لا أستطيع إقناع نفسي ناهيك عن إقناع الآخرين بالكتابة إذا لم يكن لدي ما يستحق القراءة ويفيد القراء!

احد الأصدقاء بسط الموضوع، قال :الآمر لا يتعدى كتابة ما حصل لك، وما ترتب عليه فيما بعد! وهذا على حد قوله يستحق عناء الكتابة وتعب القراءة. وهو يعلم ـ اعتمادا على اطلاعه بوضعي الصحي ـ إن الإعاقة تجربة قاسية، مضنية، ومرة، تابع يقول: ولعل الكتابة عنها تشبه "الفضفضة" عن كرب ومتنفسا لإراحة البال ولو قليلا. وهو يظن إنها تجربة غنية، وان كان غناها يكمن في مرارتها، ضناها، وقسوتها!

صاحب آخر نظر إلى الموضوع من زاوية مختلفة، قال:إذا كانت تجارب الناس الحياتية حرمة لا يجب انتهاكها، فهي إذن تكون "فريدة" يجب تسجيلها لكي يطلع عليها الآخرون للاستفادة منها.

تشجعت، وان كنت لا أزال عند رأيي أن تجربتي عادية، ويعيشها آلاف الأشخاص وان تفاوتت درجاتها من شخص لآخر ومن إعاقة إلى أخرى. وانطلاقا من ذلك فان إعاقتي بذاتها ليست مجالا لاستخلاص العبر وإنما تداعياتها وتفاعلها مع المحيط الاجتماعي أضفت عليها بعدا عاما وحولت بعض من المواقف الشخصية إلى ملامح تتجاوز الإطار الذاتي.. ملامح ربما يلمس بعض الناس فيها صوراً لأشخاص كان جل ما يربطهم بهم ليس سوى الشفة والرثاء.

وفي أتون محاولة خلق نص كانت غايته "إباحة" الذات على نحو منهجي وبأسلوب يرقى إلى ذائقة شريحة من الناس ـ قرأ الكتب التي ما فتأت دائرة عددها تضيق شيئاً فشيئا، قرأت، وكتبت.. أضفت، وحذفت، وفي النهاية بدا النتاج لي دون المستوى الذي كنت آملة!

لملمت الورق وحزمته في ضبارة حشرتها داخل خزانة أوراق قديمة تضم بينها شهادات الدراسة منذ الصف الرابع الابتدائي، وأخرى رسمية منها واحدة تثبت خلوي من الأمراض المعدية ولا خطر من دخولي الولايات المتحدة، ورسالة قصيرة كتبت بلغة إنجليزية ركيكة اطلب بها عملاً من أحد بنوك مدينة صور بعد ما اعترضتني مصاعب مؤقتة حالت دون سفري مع البعثة الدراسية إلى أمريكا لمواصلة تعليمي الجامعي.

الغاية! صاحبي الثاني لم ينس الموضوع، فسألني بعد اشهر عن "المشروع" كما أطلق على محاولتي للكتابة. وإذ عرف أنني لم اقتنع أن ما كتبت يستحق القراءة، قال بلهجة تحريضية: أنت لست القارئ المناسب لإصدار الحكم على كتابتك!

اخذ الملزمة، وفي اليوم التالي اتصل ليقول: فتحت الملزمة لتصفحها، ولم اتركها إلا بعد قراءة آخر كلمة فيها. وعقب "قراءتها بالكامل" حتى لا أظن انه قرأ الكلمة الأخيرة ليس إلا! وفي رأيه أنها صالحة للنشر بعد عرضها على أصحاب الخبرة، لكنه يعتب عليّ شحي في سرد المزيد من التفاصيل.

اعترضت على ذلك! وشرحت له أن إحجامي عن التطرق إلى تفاصيل قد تضيف شيئاً أو لا يعود إلى سببين :أولهما، أن التطويل في هذا النوع من الكتابة، خاصة لغريب عن الأدب، ربما يفقد القارئ حافز المتابعة فيلقي بالموضوع جانبا إلى غير رجعة! وثانيهما، أن حياة الإنسان ـ أيا كان ـ نتاج ماض لا يقتصر على تجاربه الذاتية فقط، وإنما تتداخل معها تجارب ناس آخرين. وثمة خصوصيات في حياة كل منا يشكل البوح بها حرجا ليس لصاحبها وحسب، بل أيضا لمن كانوا أطرافا في هذه التجارب، وهذا ما جعلني أتحاشى ذكر تفاصيل لا يحق لي الخوض فيها!

لقد وضعت نصب عيني تسجيل العموميات التي تخدم الغاية من هذه الكتابة فتوقفت عند المفاصل الأساسية من تجربتي ودونت ما اعتقدت انه يخدم هذه المحاولة دون التطرق إلى ما لا يضيف إليها شيئا.

آمل آن يجد القراء في هذا البوح بعض المتعة وشيئا من منفعة تستحق الوقت الذي أمضوه في قراءتها.

مذاق الصبر

فقدت الإحساس في جسمي كله عدا وجهي ورأسي. واقتصرت قدرتي على الحركة في عيني وفمي وحسب، ولم تكن لي قوة ـ حتى ـ على حك أنفي!

كان دعاء أمي رقيقا ينضح منه دفء الحميمة التي تجسد الأمومة بكل أبعادها ومعانيها وقدسيتها. وكان وداع زوجتي رقراقاً حملته ابتسامة هدهدت دواخلي وشدت روحي للبقاء..

وانطلقت بسيارتي في عتمة ليلة لم يظهر فيها ضوء القمر. يوم14 يوليو 1981. تركت مدينة صور خلفي إلى وجهتي: مطار السيب للإقلاع على متن طائرة شركة تنمية نفط عمان المتوجهة إلى حقول النفط بمرمول على تخوم صحراء الربع الخالي .

وكان ذلك هو الأسبوع الأخير لي في ذلك المكان النائي من عمان قبل إجازتي السنوية والسفر لقضاء شهر العسل طال انتظار زوجتي له، لأعود للعمل في مقر الشركة الرئيسي بمسقط.

وفي مكان ما على الطريق بين صور ومسقط، في وقت مبكر من الصباح حين تبدأ خيوط النور الانتشار رويدا إيذانا بانبلاج فجر يوم جديد، اتخذت حياتي منعطفا آخر عندما اعترض جملان طريقي على بعد 20 مترا تقريبا من السيارة.

وبسرعة مائة كيلومتر بالساعة، وفي جزء من الثانية ليس أكثر، كان علي اتخاذ القرار المناسب لتلافي الكارثة: إما تجاوزهما من اليمين والتعرض للتدهور خارج الشارع أو تجاوزهما من اليسار والاصطدام بسيارة قادمة من الجهة المعاكسة كان ضوء مصابيحها يخترق عينيي، أو كبح الفرامل والتضرع لله أن تبطئ السيارة سرعتها وتتوقف قبل الاصطدام بكتلتي اللحم الوجلتين وسط الطريق. واخترت الثالث منهم، لكن السيارة واصلت الانزلاق نحو الجملين وصدمت أحدهما بقوة رفعته عاليا ليرتطم بسقفها ويهوي بثقله على رأسي.

عندما أفقت من تأثير الصدمة خلت رأسي منفصلا عن جسدي. حاولت فك حزام الأمان فلم أستطع تحريك يدي. كنت لا أزال واعياً ورحت أتخيل صورة زوجتي على صوت المغني الذي ظل يأتي من سماعات جهاز تشغيل الأشرطة غير آبه بما حدث "أنا ومحبوبي وقلبينا وخامسنا الصباح..." ، فهتفت في أعماق نفسي "رحمتك يا رب" داعيا الله العلي القدير أن يهون إصابتي .

قال لي أحد الرجلين اللذين كانا في السيارة القادمة من الجهة المعاكسة وهو يفك حزام الأمان "اطمئن ستكون بخير، سنأخذك إلى مستشفى إبراء القريب من هنا."

في ساحة المستشفي، سارع الممرضون والممرضات إلى إسعافي وتجمع المرضى والمراجعون؛ وجاء المتطفلون وخيم عليّ ظل حائط مستدير قبته مفتوحة نحو السماء. كنت أتخبط في حالة بين الوعي واللاوعي، وبدأت أفقد القدرة على التركيز والرؤية وأشعر بخدر في جسمي كله وكأني مهيأ لعملية جراحية.

وفي وقت ما بعد وصولي إلى المستشفى بدأت الوجوه والأشكال والأصوات تتداخل: افتح عينيي فأرى الناس أمامي كخيالات الظل تتحرك بشكل هستيري في اتجاهات وأبعاد لا وجود لها وتصدر أصواتا كخوار الثيران لا أفهم معاني كلماتها !

لا أدري كم من الوقت مضى قبل استعادة توازني والتمكن من التركيز بعد إلحاح من أحد الأشخاص الذي كان يسألني عن رقم هاتف منزلنا في صور. حاولت التحدث، لكن لساني أبا آن يطاوعني .

قال لي أحد الممرضين بعد أن سألني إن كنت أشعر بضغط يده على قدمي وأجبت نافيا بهز رأسي "أنهم لا يستطيعون تحريكي من هنا حتى يأتي الطبيب الذي هرعوا لاستدعائه."

وصل الطبيب المناوب، وبدأ يفحص جسمي ثم طلب جبيرة بلاستيكية لتثبيت العنق، وقال لي، بقدر ما أسعفته لغته العربية وبما معناه "لا تخف، ستكون على ما يرام. أنت بحاجة إلى علاج تخصصي وسننقلك إلى مستشفى خولة بمسقط حيث تتوفر تسهيلات أفضل للعناية بك". ثم طلب من أحد الأشخاص بجانبه استدعاء سائق سيارة الإسعاف فوراً.

في مستشفى خولة، شخص الطبيب حالتي تشخيصا أولياً ثم طلب تحويلي إلى قسم الأشعة السينية. وقرر في ضوء نتائج الأشعة وضع جبيرة من الجص حول رقبتي وصدري، ونقلت بعدها إلى جناح قسم العظام.

ما كاد النهار ينتصف حتى غص الجناح والردهات المجاورة بالأهل والأصدقاء والمعارف.. بعضهم يريد تقديم المساعدة أو التبرع بالدم أو أي شيء آخر في وسعهم .

ورغم أنني لم أفقد الوعي في أي وقت من ذلك اليوم حيث كنت أستجيب لتحيات الزائرين وتهنئاتهم لي بالسلامة، غير أن معظم ما حدث طوال ساعاته مر على كصور ضبابية مشوشة لم أتبين تفاصيلها.

أما في صور، فقد تردد الخبر أن إصابتي طفيفة، ومن المنتظر عودتي إلى المنزل في تلك الليلة، لذلك انشغلت زوجتي، كما ذكرت لي لاحقاً، بإعداد البيت وفرشه استعدادا لعودتي واستقبال المهنئين بسلامة النجاة!

وفي المستشفى استشعر احد أقاربي خطورة الإصابة بعد أن لاحظ آني افقد القدرة على تحريك يداي وقدمي رغم خلوهما من أية جروح أو كسور. استفسر عن تفاصيل الإصابة ونتائجها المترتبة على صحتي، وعرف من الأطباء أن من السابق لأوانه معرفة مدى تأثير الإصابة قبل ثلاثة أيام. ففي مثل هذه الإصابات قد لا تكون الأمور سيئة كما تبدو، فالحالة ربما ليست سوى صدمة في الأعصاب سببت عطلاً مؤقتا في وظائف الجسم الحيوية .

وكانت إصابتي تبدو سهلة وغير خطيرة، فلا دماء ولا جروح ولا عمليات!

في اليوم التالي، فتحت عيني على أمي وزوجتي بجانب السرير. طغى الحزن والأسى على وجه والدتي وهي تذرف الدمع بلا انقطاع، بينما كانت زوجتي فاطمة تنظر إليّ بابتسامة تخفي وراءها اضطرابا بالغاً وحزناً كبيراً وهي تشاهد نصف جسمي مجبراً بالجص وأنابيب السوائل تدخل وتخرج من النصف الآخر.. ابتسامة لا تشبه تلك التي ودعتني بها عندما غادرت المنزل فجر اليوم السابق !

حاولت أن أبدو قويا.. متماسكا، لكن نظراتها الحائرة والمضطربة قهرت محاولتي، أضعفت قوتي، ومزقت تماسكي، فسالت دمعتي.. دمعتها، وبدا لي أن خيطاً رفيعاً امتد بين دمعتينا: معبر لهواجس الخوف والقلق !

وكان جل ما تمنيت في تلك اللحظة أن أغمض عينيي وأنعتق معها بعيداً عن ذلك الواقع الأليم إلى عالمنا الخاص: عالم آخر يزخر بالبهجة والفرح.

كثير من الأهل والأصدقاء والمعارف والمعاودين يدخلون ويخرجون. لا أستطيع الآن سرد تفاصيل اليوم التالي للحادث ولكن من الناحية الصحية لم يطرأ علىَ أي تحسن .

كان جسمي مثقبا بإبر السوائل المغذية، وكانت أطرافي الأربعة مشلولة.. وفقدت الإحساس في جسمي كله عدا وجهي ورأسي. واقتصرت قدرتي على الحركة في عيني وفمي وحسب، ولم تكن لي قوة ـ حتى ـ على حك أنفي!

في يوم السبت علم زملائي والمسئولون في شركة تنمية نفط عمان بخبر الحادثة. وأول من جاء منهم لزيارتي الدكتور هارفي، مدير الدائرة الطبية بالشركة، الذي سعى لنقلي إلى غرفة خاصة .

قبل المضي في سرد المزيد من هذه اليوميات، أود تسجيل إشادة مستحقة لهذا الطبيب الإنسان وهذه المؤسسة العملاقة الملتزمة بمصالح موظفيها. فلولا جهوده النبيلة وخصاله الإنسانية الحميدة واستجابة الشركة العالية لرعايتي خلال فترات العلاج وما بعدها لما قدر لي تجاوز المحنة وقطع هذا الشوط الطويل في مقاومة الشلل .

فلقد وقف الدكتور هارفي إلى جانبي طوال أشهر علاجي في المستشفى وعمل على تهيئة جل السبل لتوفير الراحة والعناية الطبية اللازمتين خلال وجودي هناك، ثم عمل على نقلي إلى بريطانيا على نفقة الشركة لاستكمال العلاج وتأهيلي صحيا. ولعب فيما بعد دورا عظيما في توفير الفرصة لمواصلة مستقبلي المهني أيضا!

كما أظهر لي كثير من الناس ـ بعضهم لا تربطني بهم علاقة معرفة حتى ـ من المحبة والعطف ما يفوق الوصف، فلقد غمروني وأسرتي بالرعاية والحب وساعدوا على تخفيف وقع الحادثة على أهلي بتوفير كافة سبل الراحة لإقامتهم في مسقط.

تردد الأطباء عليّ في الأيام الأولى وقام بعضهم بإجراء فحوصات متعددة، لكن لم ينوه أحد منهم بإمكانية تحسن صحتي. كان الوقت لا يزال مبكراً لتحديد النتائج النهائية التي تترتب على هذا النوع من الإصابات .

ولم يكن الأطباء يعرفون سوى أن هذه الإصابة ربما تكون قد ألحقت ضرراً بالجهاز العصبي، وأثرت بالتالي على قدرتي على الحركة الذاتية والإحساس بدءاً من الصدر نزولاً إلى أصابع اليدين والقدمين ، فضلاً عن اختلال معظم وظائف أعضاء الجسم الحيوية أسفل منطقة الإصابة . بيد أن شدة التأثير ودرجة الشفاء كانتا مرهونتين بمستوى الإحساس الذي سيعود إلى جسمي خلال الأسابيع القليلة القادمة، إلا أنهم تحدثوا عن احتمال إجراء عملية جراحية خلال ذلك الأسبوع .

وتشبثت بأمل أن يعود الأطباء غدا أو بعد أسبوع ليزفوا لي نبأ أن إصابتي ليست سيئة كما تبدو.

دخل غرفتي في صباح اليوم المفترض لإجراء العملية ثلاثة شباب من صور لم أكن أعرف سوى واحدا منهم معرفة سطحية، وتحدثوا معي بعض الوقت، ثم انفردوا بوالدي في حديث خاص أثار شكوكي، وغادروا الغرفة! سألت والدي عن موضوع حديثهم معه، فعرفت أنهم سمعوا بالعملية وجاءوا للتبرع بالدم وأخبروه أنهم سينتظرون في غرفة الاستراحة المجاورة حتى يأتي الطبيب لتقديم عرضهم عند الحاجة .

لعل مثل هذا الموقف لا يبدو غريباً إذا بدر من أشخاص تربطني بهم علاقة قرب أو صداقة، ولكن أن يقتحم غرفتي أناس لا أعرفهم ويضعون أنفسهم تحت تصرف الطبيب لتقديم الدم اللازم لعملية هو بالفعل عمل استثنائي من نوعه ـ بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى!

الأطباء قرروا، على أية حال، أنه لا حاجة لعملية جراحية واستعاضوا بدلا منها بتثبيت مشبك معدني في جانبي الجمجمة ربط بخيط يمر ببكرة ثبتت في طرف السرير يتدلى من طرفه الآخر ثقل يزن عشرة كيلوجرامات .

من تشخيص الأطباء الأولي لحالتي وفرص الشفاء، عرفت أنني تعرضت لإصابة في النخاع الشوكي عند موضع الفقرة السادسة في أعلى جزء من العنق في العمود الفقري: أي بمعنى آخر أصبت بكسر في الرقبة.

وجاء واحد منهم مثقلاً بمهمة إبلاغي انهم ـ أي الأطباء ـ لا يرون أن ثمة تحسناً يمكن آن يطرأ، وان عليّ آن اقبل ما أنا فيه كي يتسنى للتأهيل ـ سواء هنا أو في الخارج ـ فرص النجاح. وقد مهد لمهمته تلك ببعض الأسئلة الشخصية عن مكان عملي ونوعه، فلما عرف أنني مهندس اعمل في شركة للنفط وأجيد اللغة الإنجليزية بدا على ملامحه بعض الارتياح! لعل ذلك سيسهل من صعوبة المهمة المكلف بها.

شرح أولا طبيعة إصابتي من منظور طبي، فبين أن الإصابة في النخاع الشوكي أخلت بعمل الجهاز العصبي وأصبحت معظم أجزاء جسمي معزولة عن مركز النشاط العقلي في الرأس، وبالتالي لا تستجيب لإرادة الدماغ .

وأطنب في شرحه فشبه النخاع الشوكي في عمله بسلك جهاز التلغراف، فهو وسيلة الاتصال بين الدماغ وأجزاء الجسم الأخرى، عدا الوجه الذي يتصل مباشرة بالدماغ. وإذا أصيب النخاع بتلف سواء كامل أم جزئي فان ذلك يخل بوظائف بعض أجزاء الجسم اسفل مستوى الإصابة في الظهر. فأعصاب النخاع تصبح غير قادرة على نقل الرسائل من المخ إلى العضلات وبالعكس من الجسم إلى المخ. ويفقد المصاب القدرة على الإحساس أو الحركة في الأعضاء التي تقع اسفل موضع الإصابة من الظهر. ثم بدأ يتحدث عن أن هذه الأجزاء ستظل غير قادرة على استعادة أنشطتها! بعد ذلك تحدث بمواربة عن الشلل متردداً في استخدام الكلمة .

إذ ذاك وفرت عليه مشقة الحديث وحرج الموقف، وقلت له "لا داعي للإزعاج، فأنا لدي صورة واضحة تقريبا بحالتي ومستقبلي الصحي، ولكن لدي بعض الاستفسارات التي أريد إيضاحا لها إن أمكن".

ورغم انفراج أسارير الطبيب، إلا انه ظن أنى لم افهم ما قاله، فبدأ يوضح اكثر. فأجبته أنى فهمت ما قاله، وبينت له أنني أدركت ما سيترتب على إصابتي !وبدا غير متأكد مما قلت، فاستوضح الموقف اكثر بقوله "ماذا تقصد؟" فقلت له أنني مدرك لطبيعة إصابتي وما سيترتب عليها، وهي حقيقة واضحة لا يمكن سترها أو تغييبها بآمال واهية!

لعل البعض سيعتبر رد فعلي عندما سمعت الخبر وتأكدت الحقيقة ـ وان توصلت إليها سابقا ـ من فم صاحبها: شلل شبه كامل والنتائج المترتبة عليه وما سوف يصير إليه حالي في المستقبل، نوعا من المبالغة المفتعلة واستعراضاً لشجاعة لا ادعي أنني املكها !

كان المفترض أن اصرخ وارفض وأصاب بالهستيريا غير مصدق لما سمعت ومكذبا الأطباء! نعم.. لم أتصرف على ذلك النحو الذي يعبر عن جسامة مصيبتي، لكن كنت اعرف جل المعرفة مدى النكبة التي حلت بي وكنت أدرك أن الألم والحزن سيلازمانني ومن حولي لفترة طويلة قادمة، وربما طوال حياتي.

وبقدر إحساسي بفداحة المأساة عليّ كنت أيضاً أدرك قسوتها على أهلي الذين لم تتضح لهم بعد الصورة بكافة أبعادها عن مستقبلي .

"صور لم تبرح ذاكرتي"!

كنت في غفلة منها، انظر إليها.. أتمعن في ملامح وجهها، فتتعبني تلك اللحظات وتستدرجني إلى استحضار صور لم تبرح ذاكرتي..

شهر كامل مر دون أن يطرأ أي تغيير على حالتي .بدأت فداحة المأساة تكبر بداخلي أكثر فأكثر وتصاعدت وتيرة اليأس والإحباط، ووقعت فريسة التفكير المستمر فيما ينبئ به المستقبل الحالك: شخص غير قادر على المشي أو الكتابة أو الاستحمام، عاجز حتى عن إنجاز أبسط الاحتياجات اليومية للإنسان.. تفكير اخذ يدفعني إلى حافة الجنون أو يكاد !

يا إلهي.. ما أفظع أن تكون حياة الإنسان مجرد انتظار للخلاص من أوجاع الذات وآلام الجسد.. خلاص من معاناة مضنية غير معلوم وقته ولا شكله! وان تكون عيشته دون أمل.. غد افضل.. حال افضل !

وكان اشد ما يعذبني هو النظر في وجه زوجتي ورؤية تلك الابتسامة البريئة تذبل يوماً بعد يوم. إلا أن وجودها إلى جانبي كان يخفف عني مرارة الألم وكانت تثير في نفسي بعض السعادة والفرح وتشيع في جو الحجرة شيئا من البهجة والسرور.

وكنت في غفلة منها، انظر إليها.. أتمعن في ملامح وجهها، فتتعبني تلك اللحظات وتستدرجني إلى استحضار صور لم تبرح ذاكرتي..

واصل الدكتور هارفي جهوده الإنسانية لتوفير قدر من الراحة لي وتخفيف جو الألم والكآبة المحيطة بي في المستشفى، فاحضر بصحبته في صباح احد الأيام التالية فريقا من فنيي الشركة لتصميم حاملة مرتفعة لتثبيت جهاز التلفزيون على مستوي مرتفع بحيث يتسنى لي مشاهدته دون ثني رقبتي. وقام بعضهم الآخر بتثبيت "آريل" فوق سطح المستشفى ومدوا سلكا إلى داخل حجرتي!

لا شك أن التلفزيون أضفى على ساعات الملل اليومية الطويلة التي تتوالى بوتيرة واحدة بعض التغيير. فقد أخذت أتابع بعض برامج التلفزيون باهتمام وترقب هرباً من التفكير بالمصير الآتي والشعور بالحسرة الذي بدأ يطغى عليّ.

وفي الجانب الأخر تابع بعض الأصدقاء والمعارف سعيهم لتذليل العقبات أمام سفري للعلاج. في حين أكد الدكتور هارفي أن الشركة ستتكفل بعلاجي في بريطانيا إذا تأخرت إجراءات عرض حالتي على اللجنة الطبية المتخصصة للنظر في مدى حاجتي للعلاج بالخارج .

وخلال ذلك زارني بعض من زملاء العمل ومدراء الشركة. وقد أظهرت الشركة من خلال المسؤولين ومشرفي العمل المباشرين اهتماما عظيما وعطفا لا حدود لهما. كما طمأنني الدكتور هارفي على أن الشركة تجري اتصالاتها لتأمين علاج تخصصي وتأهيل مناسب في الخارج، لكن كان لا بد من الانتظار حتى تستقر حالتي وأكون في وضع آمن للسفر في رحلة طويلة .

كنت ولا أزال أعتبر نفسي من الأشخاص الذين منحهم الله نفسا طويلاً وبالاً واسعاً في التعامل مع الرتابة والروتين سواء كان مصدرهما الناس أم الأشياء، بيد أن تلك الميزة لم تجد نفعا في هذه الحالة ولم تخفف من قسوة الوجع الذي كنت أشعر به وأعانيه وأنا مشدود .وأعني بمشدود أنني لا أستطيع تحريك عضلة واحدة في جسمي سوى تلك التي تتحكم في وظائف الوجه، عاجز لا أقوى حتى على إطعام نفسي أو طرد ذبابة تتمخطر ذهابا وإيابا فوق انفي!

صبري نفد وانتظاري طال. مر شهران وحالتي ظلت دون تغيير.. شهران كنت خلالهما ممددا على ظهري، إما محملقا في سقف الغرفة أو مغمضا عيني محاولا الهرب من واقع لا انفلات منه .

كانت تستبد بي الكآبة ويضنيني الألم فأصرخ: يا إلهي !إلى متى هذا الألم والمعاناة؟ ويطغى عليّ شعور الحزن وأكاد أنفجر بالصراخ ولكني أتراجع متسائلا "ما فائدة أن أبكي وأصرخ؟" فالغضب لن يجديني نفعا وإنما سيزيد من إحساسي باليأس وسيضاعف معاناة من حولي، فأقول لنفسي لن أضعف أمام الألم وسأقاومه، فإذا كانت الحادثة أصابت عضلات جسدي بالشلل فهي لم تبلغ خلايا دماغي، فلا زلت احتفظ بعقلي ولا يستطيع المرض إيقافه أو يحد من نشاطه. وأدعو الله أن يمدني بالقوة.

وأؤكد لنفسي بشكل أو آخر إن قوة الإنسان ليست في قدرته البدنية، وإنما في قدرته النفسية التي تتجلى في مواجهة الشدائد والتصدي للمصاعب مهما تكالبت عليه !

وهكذا كان الوقت يتواتر!

بعد شهرين من وقوع الحادث قرر الأطباء أن السفر لا يشكل خطرا عليّ، شرط أن أسافر بالجبيرة وعلى نقالة. وكانت الشركة قد رتبت لعلاجي في بريطانيا بمستشفي متخصص في إصابات النخاع الشوكي.

غادرت مسقط برفقة سعاد المسلماني كبيرة الممرضات بعيادة الشركة وابن عمي عبد الله راشد، للعلاج في مستشفي »بادوك« الخاص في إنجلترا. وهو عبارة عن عيادة خاصة يستقبل فيها أطباء مستشفي ستوك ماندفيل، ذي الشهرة العالمية، مرضاهم من خارج بريطانيا.

الكرسي المتحرك

وجدت نفسي في عالم تحكمه قوانين الإعاقة وأنا لا أزال أفكر بعقلية الشخص السليم الجسد القادر على الحركة والمشي

كنت أستطيع وأنا أرقد في سيارة الإسعاف التي نقلتنا من مطار هيثرو ـ وهي تشق طريقها في مكان ما خارج مدينة لندن ـ رؤية أغصان الأشجار والأجزاء العلوية من المباني. فالأشياء والوجوه التي ترتفع بطول قامة الإنسان، على الأقل، هي التي ـ فقط ـ يمكنني رؤيتها..

هذا ما كان عليه حالي منذ وقوع الحادثة قبل شهرين ونصف تقريباً! لا أرى شيئا سوى الأسقف والمعلقات في أجزاء الجدران العلوية.

والآن، بعد سنوات عدة من ذلك التاريخ، لا أزال أتذكر كثيرا من ألوان وأشكال بلاط الأسقف والمصابيح الكهربائية ولوحات الزينة المعلقة التي شاهدتها في غرف وردهات المستشفيات أو تلك التي أمضيت أياما وشهورا أحدق فيها كوسيلة لقتل الوقت وتجاهل الألم.. وهما من العادات التي أتقنتها تماما خلال المراحل الأولى للمرض والتي ساعدتني لاحقا في التغلب على الآلام المستديمة التي تترتب على بعض حالات إصابات النخاع الشوكي (آلام جذور الأعصاب) ـ وحالتي واحدة منها.

على بوابة مستشفي "بادوك" استقبلتنا مديرة المستشفي وسارعت مجموعة من الممرضات إلى نقلي فورا إلى الغرفة.

وخلال نقلي عبر ممرات المبنى تهاوت إلى مسمعي أصوات عربية كثيرة وبلهجات مختلفة تسأل عن القادم الجديد ومن أي بلد جاء.

بعد تحريكي من نقالة سيارة الإسعاف إلى السرير بعناية فائقة، جاءت كبيرة الممرضات للتعرف وتحديد مستوى التفاهم اللغوي معي قبل أخذ أي بيانات أو تفاصيل وأخبرتني أن الطبيب أخطر بوصولي وهو في طريقه إلى المستشفى. ثم سألتني إن كنت وعبد الله نرغب في شاي أو قهوة أو بعض "الساندويتشات" إلى أن يحين موعد الغداء، فطلبت كوبين من الشاي.

ونظرا للازدحام الذي كان يشهده المستشفى في ذلك الوقت أنزلت "ولحسن حظي" في غرفة انتظار صغيرة حجزت بستارة عن الممر وتطل مباشرة عبر نافذتها الكبيرة على حديقة المستشفى، فكنت أشاهد وأنا في سريري الأشجار وأتابع حركة المارة خارج المبنى .

بعد فترة وجيزة وصل الطبيب "والش" ـ عجوز في السبعينيات من عمره ـ الذي عرفت لاحقا أنه مرجع في حقله وله مؤلفات عديدة تتعلق بمعالجة إصابات النخاع الشوكي والأعصاب وتأهيل المعوقين، وسبق له شغل رئاسة المركز الوطني لإصابات النخاع الشوكي بمستشفى ستوك ماندفيل الذي يعتبر أول مركز من نوعه في العالم. فقد تأسس في أعقاب الحرب العالمية الثانية بتمويل من الجيش البريطاني لعلاج حالات إصابات العمود الفقري بين جنود القوات التي خاضت الحرب ودراسة المضاعفات المصاحبة لمثل هذا النوع من الإصابات المعقدة في سبيل تطوير طرائق أفضل لعلاجها.

وبعد أن اطلع على التقرير الذي أحضرته معي أمر بقص الجبيرة. وأخيرا جاء الفرج! فقد تحررت من الكماشة التي كانت تمسك بخناقي لأكثر من شهرين.

شعرت بعد قص الجبيرة بحاجة إلى حمام ساخن يزيل الرواسب التي تراكمت فوق جسدي طوال تلك الفترة. فكان لي ما شئت، حيث تعاونت ممرضتان على تنظيفي بالماء الساخن والصابون والمطهرات.. غلب علي بعدها شعور بالانتعاش والراحة وأغمضت عيني ولم استيقظ إلا في الساعة السابعة مساء عندما أحضر العشاء.

أما عبد الله فقد أخبرني في وقت لاحق من ذلك المساء أن أحد موظفي العلاقات العامة في المستشفى اصطحبه إلى فندق قريب حيث نزل هناك وأمضى بقية ساعات النهار نائما.

استقبلت نهار اليوم التالي على رطانة إرلندية وصوت فتح نافذة كبيرة تطل على حديقة ريف إنجليزي. وشعرت بنسمة باردة شممت فيها رائحة هواء رطب وأعاد المنظر الخلاب لغابة الأشجار وأوراقها الصفراء ذاكرتي إلى أيام مضت لا تكف تشد روحي إليها إذا شاءت الظروف. فقد كنت أثناء دراستي في الولايات المتحدة الأمريكية أقضي بعض الأوقات الممتعة في حديقة طبيعية بجانب سكني، خاصة خلال الخريف .ولكن سرعان ما أفقت من حلم اليقظة لأنفلت من عالم الذكريات الجميلة وأعود لحاضري الأليم: الشلل والعجز عن المشي.

وبعد الظهر جاء الطبيب والش لإجراء فحص شامل لتحديد مستوى الضرر الذي أصاب النخاع الشوكي في الفقرات العنقية حيث أخذ يوخز جسمي ابتداء من العنق نزولاً إلى الصدر والذراعين والجانبين بأداة حادة وطلب مني إخطاره عندما أشعر بالألم. وإلى جانبه كانت تقف ممرضة تحمل في يدها مخططا لجسم الإنسان تضع عليه نقاطاً في الأماكن التي لا أستجيب فيها للوخز، ثم قام بعد ذلك بفحص مفاصل الركبتين والقدمين وذلك بالطرق عليها بمطرقة خشبية لجس رد الفعل اللاإرادي لعضلات هذه الأجزاء من الجسم.

أمضيت الأسابيع الخمسة الأولى في معاناة مستديمة من صداع حاد كان يصيبني خلال فترات تتراوح ما بين نصف ساعة وساعة واحدة وذلك بسبب خضوع واحدة من وظائف الجسم الحيوية لبرنامج علاج يتطلب إدخال قسطرة في مجرى البول لتفريغ المثانة كل ثلاث ساعات ـ وهو ما يعرف كما قيل لي بـ "تأهيل المثانة."

وعرفت أيضا أني سوف أعاني خلال هذه الفترة من آلام شديدة في الرأس.. وهي من الأعراض الشائعة في المراحل الأولى من الإصابة، ولعلها تعد إشارات أولية على ظهور بعض المضاعفات التي تتطلب علاجا طبيا ومراقبة متواصلة.

قرر الطبيب، بعد ستة أسابيع أن الوقت حان لجلوسي على الكرسي، وهو أمر يعد له برنامج محدد يزداد فيه زمن الجلوس تدريجيا نظرا لطول الفترة التي يمضيها المصاب بمثل حالتي في السرير.

وفي صباح يوم الاثنين جاءت أخصائية العلاج الطبيعي مبكراً لإعدادي للجلوس على الكرسي وعرفت منها أنني سأصاب بإعياء وربما بغيبوبة عندما أجلس على الكرسي بسبب تدفق الدم من الرأس والجزء العلوي من الجسم بسرعة نحو الأسفل، ولكن تلك الأعراض ستزول شيئاً فشيئاً بزيادة زمن الجلوس وتكرار مراته.

كان الجلوس على الكرسي المتحرك احد اصعب المواقف التي اعترضتني في بداية فترة التأهل، فقد وجدت نفسي في عالم تحكمه قوانين الإعاقة وأنا لا أزال أفكر بعقلية الشخص السليم الجسد القادر على الحركة والمشي.

عزومة على الشاي

إبريق الشاي وبابور النار وصفيحة "المعسل" على الطاولة وقصبة أرجيلة تدور على الحضور

بعد مضي حوالي ثلاثة أشهر علي وجودي في المستشفي، قطعت شوطاً متقدماً في العلاج الطبيعي الذي كان يشتمل على تمرينات عامة تنقسم إلى نوعين حسب حالة جزء الجسم الذي يخضع للعلاج: التمارين التنشيطية، وهي التي تهتم بتقوية عضلات ومفاصل الأجزاء غير المصابة بالشلل وتنشيطها لأداء وظائفها المعتادة فضلا عن إعدادها للمساعدة في تأدية مهام إضافية أخرى؛ والتمارين السلبية، وهي التي توجه للعناية بالأجزاء المصابة بالشلل من الجسم بغية الحفاظ على مرونة المفاصل والحيلولة دون ضمور العضلات وتشوه العظام وتنشيط الدورة الدموية في هذه الأجزاء.

ويشمل العلاج الطبيعي أيضاً تدريب المعوق على بعض الأنشطة اليومية مثل التنقل من الكرسي إلى السرير أو إلى مقعد السيارة وبالعكس. وكان الكرسي المتحرك وسيلة أساسية لتحقيق بعض الاستقلال في التنقل والحركة، فضلاً عن إعادة التأهيل كاستخدام فرشاة الأسنان والأكل باستخدام أدوات مناسبة، بالإضافة إلى التأهيل المهني كتعلم الكتابة (من جديد) والطباعة وتشغيل بعض الآلات.

وبعد أن تمكنت من الجلوس على الكرسي وتيسر لي التحرك من مكان إلى آخر في ردهات وأجنحة المستشفي تعرفت على معظم النزلاء الذين جاء معظمهم من الدول العربية وبالتحديد من دول الجزيرة؛ أبرزهم كان أبو صلاح: شيخ المستشفي بلا منازع ـ في العقد السادس من عمره ـ يتمتع بروح مرحة ودعابة سمجة، أحيانا، يسددها أينما شاء بين الممرضات وموظفات المستشفي .عرفت منه أنه تعرض لحادث سيارة بعد عودته من المطار حيث ذهب لتوديع مجموعة من الأصدقاء نزلوا عليه ضيوفاً خلال عطلة نهاية الأسبوع.

بدا لي أبي صلاح في الوهلة الأولى فخورا بسمات الوجاهة التي صبغها على نفسه والتي عززتها الممرضات بإطلاق لقب "الشيخ" عليه، لذلك كان يحاول دائما أن يكون عند مستوى التسمية. فبعد عدة أيام من جلوسي على الكرسي جاء أبو صلاح لدعوتي إلى غرفته لشرب الشاي والتعرف على بقية الشباب.

ذهبت لتلبية الدعوة، وعندما دخلت الغرفة كانت الجلسة أبعد ما تكون عن أجواء المستشفيات وأشبه ما تكون بمقهى شعبي في وسط إحدى أسواق الأحياء الشعبية في مدينة خليجية، حيث وضع إبريق الشاي الأحمر والاستكانات (الأكواب) وبابور النار (موقد كهربائي) وصفيحة "المعسل" على الطاولة بجانب السرير وكانت قصبة الأرجيلة تدور على الحضور بين حين وآخر.

توثقت علاقتي بأبي صلاح خلال الأشهر التالية وعرفته عن كثب، حدثني كثيراً عن نفسه وعن حياته السابقة وعن مغامراته – ليست العاطفية وإنما العملية – فتشكلت في ذهني صورة واضحة الملامح عن هذا الرجل.

لقد عمل في بداية حياته ولفترة طويلة في إحدى شركات النفط الكبيرة في بلده.. استطاع خلالها جمع ثروة يحسد عليها. لم يخف الرجل ماضيه والأسلوب الذي سلكه لجمع هذه الثروة، فهو كما قال لم يدخر جهداً خلال عمله كمسئول عن النقليات والتموين الغذائي للشركة في تسخير إمكانات وظيفته وعلاقاته العامة المرتبطة بها لتعزيز مؤسسته الخاصة وتوسيع نشاطاتها.

وبعد استقالته من شركة النفط، وسع صاحبنا تجارة شركته التي أصبحت تتعامل في تموين وتجهيز شركات النفط والشركات المرتبطة بها بالمواد الغذائية ووسائل النقل.

بعد أيام من زيارتي لأبي صلاح تعرفت إلى شخص آخر كان أكثر تحفظاً في علاقاته الشخصية وأقل اختلاطا ببقية النزلاء. سمعت الممرضات يدعونه "الكولونيل" وهي رتبة عسكرية تقابلها في العربية رتبة "مقدم" فأثار ذلك من نفسي خصلة الفضول.

استقصيت! وعرفت أنه ضابط برتبة ملازم ثان فقط في سلاح الطيران في وطنه. وبسبب تعامله مع الممرضات بنفس سلوك الضابط اتجاه جنوده أصبحت الممرضات يطلقن عليه لقب "الكولونيل"، بل أن بعضهن يؤدين له التحية العسكرية عندما يأمرهن بتلبية حاجاته. ويبدو أن صديقنا لم يعترض على هذه الترقية الكبيرة فالتصقت به وأصبح الجميع يناديه بها.

وفي الجناح المقابل لسريري ينزل شخص آخر اسمه" أبو مشعل". بدأت علاقتي بأبي مشعل منذ الأيام الأولى من وصولي وقبل أن تتاح لي حرية الحركة على الكرسي. وهو أيضا حديث العهد بالمستشفي ولم يتحرك من سريره بعد.

كانت العادة أن يأتي طباخ المستشفي صباحاً إلى كل مريض قبل إعداد وجبات الطعام لتسجيل رغبات كل شخص على حده من الأكل، وكان أبو مشعل يواجه صعوبة في التفاهم مع الطباخ بشأن طلباته. وفي إحدى المرات سمعته يصرخ بأعلى صوته وهو يطلب من الطباخ أن يحضر له شيئا أسمه "حبحب".. نوع من الفاكهة لم أسمع بها من قبل.

حاولت التدخل من سريري مستفسرا عن نوع الطعام الذي يريده حتى أستطيع ترجمته للطباخ فعرفت منه أنه يريد كما قال "فاكهة صفراء كبيرة" فخمنت أنه يقصد" شمام" فنقلت للطباخ ما يريد.

ومنذئذ وأنا أتولى ترجمة طلبات أبي مشعل ليس للطباخ فحسب، بل للممرضات والدكتور وكل من يتعامل معه من الإنجليز. وأصبحت مترجمه الخاص حتى في غرفة العلاج الطبيعي التي يصر فيها أبو مشعل على وضعه خلال العلاج في مكان قريب مني حتى أستطيع تخليصه من "هذر" المتخصصات بالعلاج الطبيعي.

تنطبق على أبي مشعل المواصفات النموذجية لبدو صحراء الجزيرة العربية، فهو سخي كريم يصر دائما على دفع حساب طلباتنا الليلية من الوجبات التي نطلبها من المطعم الهندي الموجود في وسط المدينة.

وحتى حادثته مرتبطة ببيئته الصحراوية، حيث كان الجمل، الذي لا يخفي إعجابه به، سبباً فيما هو فيه.. وهي حالة مشتركة بيننا وان اختلف الشكل، فقد سقط أبو مشعل على رأسه من فوق ظهر الجمل بينما سقط الجمل على رأسي.

يرافق أبي مشعل ابنه مشعل: شاب في أوائل العشرينات من عمره، يشعر الإنسان عندما يراه إلى جانب والده بمفارقة فجة وقبيحة بين الأب والابن. فالأول نتاج خالص لبيئة الصحراء العربية التي شكلت ملامحه وسلوكه وحتى طريقة كلامه بقسوتها من جانب وصفاء فيافيها من جانب آخر. ففي حين يبدو لك جلفاً قاسياً يصعب التعامل معه أو حتى التحدث إليه، إلا انه سرعان ما تظهر طبيعته السمحة وكرمه السخي ونفسه الطيبة .

وطفحت على الابن أشكال ومظاهر غريبة من الشارع الغربي، فتراه حلق شعر رأسه بطريقة تستفزك قبل أن تثير اشمئزازك، وعلق حول عنقه أشكالا لا حصر لها من السلاسل والسيور وصور الحيوانات ونماذج مصغرة لأشياء أخرى لا يمكن ذكرها هنا! أما ملابسه فحدث ولا حرج ـ كما يقال ـ كثرت ألوانها وتعددت الرسومات عليها، وبدا الشاب كله كشجرة عيد ميلاد متحركة أو أشبه بالكازينوهات التي تزين واجهاتها لوحات" النيون" الملونة والمصابيح البراقة.

اليأس والسأم

وقعت فريسة للحيرة، وانتابتني حالة شديدة من الاكتئاب والقلق مردهما خوفي من مواجهة الحياة بعيدا عن عناية المستشفي

طغت على نفسي خلال هذه الفترة حالة من الضجر، واليأس وأصبحت سئماً لا أحفل بأي شيء ولا يعجبني العجب – حسب القول الشائع – رغم العناية الشخصية الفائقة التي حظيت بها من جانب موظفي المستشفى وممرضاته.. لا سيما البعض منهم الذين ربطتني بهم علاقات شخصية حميمة.

فمنهم الممرض بول الذي لم يكن عمله يتصل بخدمة المرضى مباشرة، لكنه كان يحرص على زيارتي كل صباح.. يفتح ستائر نوافذ الغرفة وهو يغني واحدة من تلك الأغاني الفلكلورية التي تحث على الاستيقاض والنشاط لاستقبال يوم جديد.

وذهب أبعد من ذلك! إذ أصر عندما طال شعر ذقني أن يتولى هو شخصياً، وبدون تكليف من المسئولين عنه، حلق ذقني كل يومين. ثم توثقت صداقتي به فكان يأتي لزيارتي خلال بعض عطل نهاية الأسبوع لاصطحابي إلى السوق أو لتناول وجبة طعام خارج المستشفي في أحد المطاعم بوسط المدينة.

والطباخ جيري، الذي كان يبذل قصارى جهده لإعداد بعض أصناف الأطعمة الخليجية إكراما لأغلبية نزلاء المستشفي إلا أن التوفيق كان يجافيه رغم محاولاته المستميتة. وكانت وجباته تخرج ممسوخة الطعم والشكل حتى عثر على كتاب للطبخ باللغة العربية فأحضره لي لاختيار بعض الوجبات المفضلة لدى العرب وترجمتها له، فنجح في تحضيرها أيما نجاح وجاءت ردود الفعل سريعة من المرضى الذين نقلوا إعجابهم بأصناف الأطعمة الجديدة لإدارة المستشفي. ومن يومها وجيري يخصني بأطباق لذيذة وطيبة من أفضل الأطعمة الإنجليزية التي يعدها خصيصا لإبراز موهبته في فن الطهي.

ثم الممرضة فال – وهي فال حسن بالتأكيد – صاحبة ابتسامة مشرقة ووجه صبوح يعكس، رغم سنواتها الأربعين، براءة طفولة. لن أزعم هنا أن لي تجربة واسعة في تفسير خصال البشر واستشفاف نفوسهم تؤهلني لإصدار أحكام قاطعة عليهم، لكن لا ادري لماذا شعرت أن قلب هذه الإنسانة لا يضمر ضغينة أو كرهاً ولا يحمل أحاسيس أخرى سوى الحب وأن يدها لا تمتد أبدا إلا لصنع الخير .

عرفتها في وقت كنت في أشد الحاجة لأحد مثلها.. شملتني برعايتها وعطفها، فكان شعورها الفياض ذلك يمدني بالسعادة وينتزعني من حالتي اليأس والسأم اللتين كنت أراوح بينهما. وكان لوجودها بجانبي دور كبير في الأيام التي سبقت سفري إلى عمان حين وقعت فريسة للحيرة، وانتابتني حالة شديدة من الاكتئاب والقلق مردهما خوفي من مواجهة الحياة بعيدا عن عناية المستشفي والتي سآتي على ذكرها لاحقاً.

زارتني في هذا الفترة سيدة كريمة أعرفها من سنوات الصغر وتفرقت بنا السبل في أيام الكبر. جاءت بصحبة زوجها – أو عريسها على الأصح – فلقد علما بوجودي في إنجلترا للعلاج

وتجشما مشقة السفر من لندن حيث كانا يقضيان شهر العسل. كان وقع زيارتهما عليّ كبيرا.. لا سيما وأن حديثها الطيب عن أيام زمان أعاد لي بعض ذكريات الماضي الجميل. منها، أننا كنا نمضي فصل القيظ في منزلين متجاورين بمنطقة بلاد صور، وهي منطقة تكثر فيها مزارع النخيل فينتقل إليها سكان مدينتنا خلال فصل الصيف.

وبعد أيام من زيارتهما دخلت علي إحدى الممرضات بباقة ورد تشبه تلك التي أحضراها من قبل. وإذ أنني لم أكن أتوقع رؤيتهما مرة أخرى حيث سبق وعرفت منهما أنهما سيغادران لندن في اليوم التالي. سألت الممرضة عن مصدر باقة الورد، فأخبرتني أن الزوجين تركا معها مبلغاً من المال وطلبا إليها شراء ورد جديد كلما ذبل الورد في غرفتي حتى ينفد المبلغ. وهكذا ظلت حجرتي تفوح برائحة الورد.

"صدق أو لا" انه لا يزال يعيش بين ظهرانينا أناس بهذه الدرجة من الإحساس الإنساني المرهف! غمرني ذلك الموقف بفيض حنان ورسخ في نفسي الإيمان أن حياتنا ستظل تحتفظ بسمات الإنسانية مهما طغى عليها ضجيج الآلات ونفذ إلى زاوية من زواياها.. سنبقى بشراً وستبقى الأحاسيس اللغة السائدة بين الناس!

بعد مضي ثمانية أشهر على وجودي في المستشفى أصبحت في حالة لا يمكن إضافة المزيد عليها في أي جانب من جوانب العلاج سواءً الطبي أو الطبيعي أو التأهيل المهني. ففي الجانب الطبي لم يكن ثمة ما يمكن عمله لتحسين وضعي الصحي، وفي العلاج الطبيعي استنفدت المتخصصات في هذا النوع من العلاج كافة الوسائل لتدريبي وتأهيلي لاستخدام ما تبقى من عضلات جسمي بأفضل ما يمكن، ولكن مستوى إعاقتي كان حائلا دون تحقيق الكثير في هذا الجانب.

كان البدء بتعلم أشياء جديدة، أي التأقلم والتعايش مع متطلبات الإعاقة، يثير في نفسي الإحباط والتشويش في آن واحد، لكني بدأت مع مرور الوقت والتمرس تطوير وسائل تعينني على تجاوز تلك المعوقات.

أما التأهيل المهني والتثقيف الصحي فكنت أفضل حالاً فيهما لأسباب عدة، هما إجادتي للغة الإنجليزية التي كانت العامل المؤثر في تقدمي في هذا المجال. فنظراً لولعي بالقراءة والمطالعة استطعت أن أكون حصيلة من المعرفة من خلال قراءة كثير من الكتب والمجلات والدوريات المتخصصة بإصابات النخاع الشوكي والأمراض المترتبة عليها .

وبفضل ذلك تمكنت من الاستفادة إلى الحد الأقصى من طرائق العلاج التأهيلي الذي يعمل الطبيب والش على تطبيقها والتي تتركز أساسا على توعية المريض ببعض الحقائق الأساسية المتعلقة بطبيعة إصابته حتى يتسنى له معرفة إعاقته وتعريف أقاربه وأصدقائه بطبيعة حالته الصحية وتوضيح حدود قدراته وعجزه المصاحب للإصابة حتى يتسنى لهم التعامل معه وفقا لحالته الجسمية الجديدة، وليتسنى بالتالي اندماجه بعد تأهيله في المجتمع دون صعوبة.

كان هدف التأهيل هو المساعدة على "تصميم" أسلوب حياة مستقلة قدر الإمكان، لكن، وأخذاً في الاعتبار جسامة إعاقتي، لم أخدع نفسي وأتعلق بآمال واهية لتحقيق أكثر مما هو ممكن. وعندما أعلن الدكتور والش أن فترة علاجي أوشكت على الانتهاء خالجني شعور متناقض بالفرح والخوف: الفرح برؤية أهلي وزوجتي والخوف من غموض المستقبل الذي ينتظرني والعبء الثقيل الذي ستفرضه إعاقتي ووضعي الصحي عليهم .

ومع مرور الوقت واقتراب موعد عودتي إلى عمان كان توتري يزداد، وأصبحت فريسة للخوف، لكن عناية الممرضة فال بي ساهمت كثيراً في تخفيف مشاعر التوجس والاضطراب والقلق والاكتئاب التي سيطرت عليَ في تلك الفترة، فقد أخذت على عاتقها ـ وخارج ساعات الدوام الرسمي ـ تنظيم عدة زيارات لمجموعة من المعوقين يعيشون بين أسرهم أو في أماكن عملهم. ومنها زيارة لزوجين معوقين ـ الإعاقة جمعت بينهما ـ في العقد الخامس من عمريهما كان يعيشان في منزل مستقل ويعتمدان تماماً على نفسيهما في تدبير أمورهما المعيشية والمادية .

عادت تلك الزيارة علي بفائدة عظيمة، خاصة وأننا أمضينا وقتا طويلا معهما حيث استطعت التعرف على أسلوب معيشتهما اليومية. وكان الرجل كريماً جدا معي، فأخذني في جولة بالمنزل وأطلعني على تفاصيل دقيقة في حياته اليومية وطرائق خاصة أوجدها هو بنفسه لتسهيل متطلباته وحاجاته البدنية دون عناء كثير.

لم احسن الظن

كانت هواجسي في غير موضعها! إذ أثبتت فاطمة بحبها قدرة لا متناهية على فهم وضعي الجديد وأزالت ببساطة تعاملها جبال الأوهام التي ترسبت في نفسي

لم تكن الشمس قد أشرقت بعد عندما امتدت يد توقظني، يوم عودتي إلى الوطن. شعرت بالرهبة وكأني مقدم على اختبار غير مستعد له ولست واثقا من نتيجته!

كنت لا أزال مستغرقا في التفكير وخيالي يجسد موقف لقائي الأول بأهلي وزوجتي، عندما طلبت المضيفة عبر مكبرات الصوت من المسافرين العودة إلى مقاعدهم استعدادا لهبوط الطائرة في مطار السيب.

وقد طلبت من أهلي خلال اتصالي بهم هاتفياً من إنجلترا عدم الحضور إلى المطار، سوى زوجتي طبعاً، وانتظاري في صور إلى أن تنتهي فترة تدريب فاطمة على العناية بي في عيادة الشركة، إلا أني لم أكن على يقين أنهم سيلبون طلبي.. خاصة والدتي التي أعرف أنها لن ترضخ لأية مبررات ولن تجدي معها محاولات التوسل والإقناع نفعا.

كنت أريد أن أكون في وضع حسن ومزاج نفسي طيب حين أقابلهم للمرة الأولى لكي أعطي انطباعاً يوحي بالثقة وتكون وطأة مشاهدتهم لي وأنا جليس الكرسي المتحرك أخف وأقل تأثيراً.

لكن يبدو أن أحد عمل على تنفيذ رغبتي، فلم يحضر لاستقبالي في المطار سوى زوجتي وأحد أقاربي. خف توتري وأنا أشاهدهما لوحدهما في انتظاري خلف الحاجز الزجاجي الذي يفصل قاعة الوصول عن قاعة المستقبلين.

وكنت قد تحدثت مع زوجتي مرات عديدة وهيأتها لما يجب أن تتوقعه. وبالفعل كان رد فعلها الأولي عظيما.

أمضينا أسبوعين في عيادة الشركة بمسقط بغية تأهيل زوجتي لكي تفهم حالتي الصحية وتتعامل مع وضعي الجديد من خلال الممرضة التي رافقتني.

وكان انتابني هاجس قبل سفري من إنجلترا أن فاطمة سوف تجد صعوبة بالغة في التعامل معي بدنياً ونفسياً، وأنها لن تتحمل مشقة طلباتي الدائمة للمساعدة. وأمضيت تلك الفترة أتخبط في دوامة مستمرة من القلق والتفكير ووضع التقديرات والاستنتاجات وحتى ردود الفعل التي علي أن أعدها لمواجهة المتوقع وغير المتوقع .

وكان اليأس يبلغ بي أحيانا حد التمني بصدق لو أنني أستطيع البقاء في هذه المستشفى إلى الأبد، لكن هاجسي كان في غير موضعه ولم أحسن الظن، فقد أخطأت كثيرا! إذ أثبتت فاطمة بحبها قدرة لا متناهية على فهم وضعي الجديد وأزالت ببساطة تعاملها حيال التغيير جبال الأوهام التي ترسبت في نفسي وبثت في روحي بدلًا منها بوارق مضيئة من الأمل فأخذت أرى الدنيا معها أكثر إشراقا .

زارني خلال وجودي في العيادة بعض مدراء الشركة للمجاملة وربما التعرف على وضعي الصحي وما سوف يصير إليه حالي بالنسبة للعمل !

وكنت خلال هذه اللقاءات أحاول أن أبين وبوضوح تام حدود قدراتي البدنية، وأؤكد سلامة قدراتي ـ وربما بالغت ـ العقلية. فلقد كنت حساسا تجاه مواقف الناس الذين يربط بعضهم بين الإعاقة الجسدية وسلامة القوى العقلية!

بعد عدة أيام من وصولي جاء الدكتور هارفي بتكليف من الشركة لمناقشة موضوع عملي بها وبالتفصيل. ولأني كنت أفتقر لأي تصور إيجابي لمستقبل حياتي، ناهيك عن العمل، صمت عاجزا عن الرد! فأدرك الرجل موقفي وأخذ على عاتقه مهمة التفاوض مع الشركة لصالحي، حيث كتب تقريرا طبيا يعزز فيه صحة ما جاء في التقرير الذي حملته معي من بريطانيا بخصوص قدراتي على مزاولة العمل طالما تهيأت السبل الملائمة لوضعي الصحي.

عاد الدكتور هارفي بعد يومين برسالة من الشركة ..قرأتها، ثم طلب مني ترجمتها لزوجتي: الرسالة باختصار تشير إلي أن الشركة تبدي التزامها برعايتي وعلى استعداد لمساعدتي في مواجهة الحياة وتوفير متطلباتها .

وحتى تبدو الصورة أكثر وضوحاً، طرحت الشركة ثلاثة خيارات :

أولا، مواصلة العمل في الشركة. ومع الأخذ في الاعتبار أنني لا أستطيع مزاولة وظيفتي السابقة فإنه سيتم نقلي إلى وظيفة ملائمة ستحدد لاحقا بعد دراسة قدراتي البدنية وإمكاناتي العملية .

ثانيا، أن أبقى في مسقط على أن تتكفل الشركة بمساعدتي على تأسيس عمل خاص يناسب مؤهلي الدراسي ويتلاءم مع وضعي الصحي بحيث أستطيع مزاولته من نفس المكان الذي أسكن فيه .

ثالثا، الشركة تنظر بعين الاعتبار لحاجتي بأن أكون إلى جانب أسرتي في صور، لذلك تبدي استعدادها لمخاطبة الجهات الحكومية للحصول على وظيفة مناسبة، مثل مدرس في معهد التدريب المهني .

وفي الحالات الثلاثة كلها، عرضت الشركة التزامها بتقديم الدعم الصحي وتوفير كافة الاحتياجات الطبية!

الدكتور هارفي لم يستعجل الرد، بل نصحنا في الواقع بالتريث حتى نذهب إلى صور ونتشاور مع أسرتينا، وذلك كان رأيي أيضا. فاطمة، على أية حال، كانت أكثر حماسا، فحسمت الأمر قبلي .

كنت مترددا، فلم أكن أريدها أن تتسرع بقرارها قبل أن تتأكد ـ وبعد فترة من العيش معي ـ أن قناعتها بمواصلة الحياة معي ليست مجرد إحساس انفعالي يمليه الواجب وعاطفية مردها الحب والرابط الزوجي .

ليس فقط لم أشأ أن أفرض عليها الخيار فتركتها هي التي تقرر، بل حاولت أن أرسم لها صورة قاتمة لمستقبلها معي. قلت لها أن الحياة معي قد تبدو مقبولة الآن ويمكن التغلب على صعوباتها، ولكنها ستصير قاسية ومؤلمة في المستقبل، وأنا لا أريد أن نبلغ تلك النقطة التي يكون سبب الانفصال فيها استحالة العيش معاً وليس الاقتناع ومواجهة الحقيقة ـ التي كان يتعين إدراكها منذ البداية – وضعي الصحي الجديد الذي لا يسمح لي بالاحتفاظ بحياة زوجية.. لا سيما وأننا لم ننجب حتى يكون ذلك مبررا قويا للتضحية من جانبها.

والواقع أن هذا الموضوع شغل حيزا من تفكيري خلال الأيام الأخيرة قبل عودتي من بريطانيا، فقد ظننت أنها لن تتحمل العيش معي طويلا وأن علامات التذمر والتبرم سرعان ما ستظهر عليها. فطالما سألت نفسي: هل من حقي أن أطالب فاطمة أو حتى أفترض بقاءها معي؟ وكانت الممرضة "فال" دائما تجيب عن تساؤلي بسؤال: ماذا ستفعل أنت لو كانت هي من أصيب في الحادث؟ والحقيقة أني لم أستطع ـ وأعجز حتى الآن ـ عن الإجابة عن ذلك السؤال!

مر أسبوعان، ورغم قصر المدة صرت الآن في وضع افضل بكثير عما كنت عليه عند وصولي. وتعلمت فاطمة خلال هذه الفترة من الممرضة أساليب العناية بجرأة شديدة وسرعة وإتقان لا يوصفان. وبذلت قصارى جهدها ـ أفلحت ـ في معرفة كل ما هو ضروري عن وضعي الجسدي .

كنت انظر إليها وهي تراقب الممرضة وتستفسر عن بعض الجوانب المتعلقة بالعناية بي فأراها شعلة متقدة تعمل برغبة صادقة لاستيعاب كل ما تشاهده وتحاول إنجاز ما تقوم به على اكمل وجه .

أبلغت الشركة برغبتي في مواصلة عملي بها ، فعرضت علينا منزلا من المنازل الشاغرة والقريبة من المقر الرئيسي لها. وحسب رغبة فاطمة التي ذهبت لمعاينة المنازل وقع الاختيار على واحد منها وطلبنا من دائرة الخدمات صيانته وإعداده خلال وجودنا في صور التي قررنا الذهاب إليها وقضاء بعض الوقت مع الأهل قبل الاستقرار في مسقط.. الأمر الذي رحبت به الشركة.

لا شئ في صور يقلقني أكثر من لقاء أمي التي أعرف أنها ستتابعني بنظراتها الحزينة وحسرة قلبها في كل حركة أو زفرة تصدر مني. فمن الطبيعي أن تكون أيامي الأولي هناك مؤلمة على جميع أهلي، ولكن من المؤكد أيضا أن أيام حياتي كلها ستكون قاسية على أمي.

كنت أتوقع، عندما وصلنا إلى صور، أن أجد كثيرا من الأقارب في استقبالي بالمنزل، ولكن لم أجد أحدا لا خارج المنزل ولا داخله سوى والديّ .

ويبدو أن هناك من خطط لهذا الأمر أيضا وعمل على تنفيذه بغية تجنب إحراجي من نظرات أهلي الذين ربما يتوقعون أنني في حال أفضل مما أنا فيه.

اختلط الأمر على والدتي، فهي سعيدة بعودتي وحزينة بمشاهدتي وأنا على كرسي متحرك. لا أعلم بالضبط ماذا كانت تتوقع، ولكنها لم تستطع التحدث معي، بل أنها كانت تتحاشى النظر إلي .

بذلت جل جهدي للسيطرة على مشاعري وأنا أرى أمي تحدق في الأرض وتذرف الدموع، والجميع يحاول أن يبين لها الجانب الإيجابي الذي تمخضت عنه هذه المأساة. "احمدي الله على كل شئ. فهو أمامك بلحمه وشحمه .. يبتسم ويتكلم. لا تستقبلي ولدك بهذه الدموع، فهي لن تزيده سوى سؤ" هكذا كان والدي يتحدث إليها .

أما أنا فحاولت التقليل من توتري الذي أطلقته تلك النظرات المتفحصة ..المحتارة، والناطقة بألف سؤال وسؤال! وبينت لها وللجميع أني لم ولن أعترض على قدرة الله سبحانه وتعالي، فما حدث حدث وليس بوسع أحد أن يبدل من الأمر شيئا، ولكن باستطاعتي وبمساعدتهم أن أعيش بهذا الوضع هانئا بما قدر الله لي في هذه الحياة وأن أستفيد بما يتاح لي فيها بأفضل شكل ممكن، فلا خيار لي غير ذلك.

التصالح مع الإعاقة

لم يطرأ عليّ تغيير بمجرد أنني استخدم الكرسي المتحرك للتنقل من مكان لآخر بدلا من قدمي، أن اصبح غير قادر على الحركة وممارسة حياتي الطبيعية نتيجة لإصابة في العمود الفقري، فذلك أسوء ما حدث لي في حياتي! فلقد أخلت الإعاقة بحياتي على كافة مستوياتها: الصحية، الاجتماعية، الزوجية، والوظيفية. وسواء قبلت وضعي الجديد كمعوق أو رفضته.. نسيته أو تجاهلته، كان لا سبيل أمامي سوى أن أتصالح مع الإعاقة واقبل شروطها وأتعايش مع تبعاتها مهما كانت قاسية! وكان عليّ إعادة بناء حياة جديدة على أنقاض أخرى تحطمت، وبناء أحلام أخرى في إطار الحدود التي تفرضها إعاقتي ومستقبل حياتي الزوجية .
لكن.. وان تحطمت الأحلام، فان الإرادة موجودة للاستفادة مما يتاح لي في الدنيا افضل استفادة.

عندما يبدأ المعوق المصاب حديثاً في العمود الفقري بالعودة إلى المجتمع بعد العلاج، سيجد أن الناس سواء الأقارب أو الأغراب لا يعاملونه تماما مثلما كانوا قبل الإصابة.. وهذا طبيعي! كذلك سيجد أن الناس الذين يقابلهم لا يرتاحون كثيرا لوجوده حولهم. لعلهم لا يعرفون ماذا يقولون أو كيف يتصرفون معه !

وكنت أدرك أن هذا التغيير المفاجئ في وضعي سيثير ردود أفعال مفهومة أو لا بين أهلي وأصدقائي، فهم جزء من المجتمع ولربما لديهم نفس الاعتقادات والمواقف المشوشة عن المعوقين. ولقد تعلمت خلال فترة التأهيل آن أكون تلميذا وتعلمت بعد عودتي آن أكون "معلماً" أساعد أهلي وأصدقائي والناس المحيطين بي على فهم إعاقتي ومن ثم إعادة صياغة مواقفهم من الإعاقة والمعوقين!

ومن نافلة القول أن اقرب الناس إلى المصاب هم أكثرهم تأثرا بإعاقته. وإذ ذاك كنت دائما أحاول أن اعبر عن شعوري تجاه إعاقتي من خلال مناقشة تبعاتها الصحية والنفسية والاجتماعية دون مواربة أو تردد! وأؤكد لهم، بالتصرف حيناً أو الكلام حيناً آخر، انه لم يطرأ عليّ تغيير لمجرد أنني فقدت القدرة على المشي واستخدم الكرسي المتحرك للتنقل من مكان لآخر بدلا من قدميّ. ولكي أكون اكثر وضوحا، أبين انه ليس هناك أي سبب يدعو للافتراض أن شخصيتي.. قدراتي العقلية.. سلوكي في التعامل مع الناس أو أية صفات أخرى تغيرت لأنني تعرضت لإصابة أقعدتني عن المشي!

يظن بعض الناس أن المعوقين يصابون اكثر من غيرهم بحالات الاكتئاب والحزن وهم اكثر هشاشة أمام مصاعب الحياة اليومية، ومن ثم فان هذه التداعيات التي تعزى للإعاقة تلعب دورا مؤثرا وبشكل مباشر وقوي في حياتهم الاجتماعية والصحية، إلا أنني لا اعتقد أن معاناة الإنسان المعوق من إحباطات وخيبات أمل تعود فقط إلى حالته الصحية، وإنما العراقيل التي تمنعه من التكيف مع الإعاقة لها دور كبير في هذه المعاناة.

وكنت واجهت في الفترة الأولى من سنوات الإعاقة بعض مصاعب المعاملة الخاصة (ما يطلق عليه التمييز الايجابي) حيث كان أهلي يتحاشون المواقف التي ربما قد تزعجني وتثير أعصابي. فقد أجد نفسي أحيانا غاضبا أو حزينا ككل الناس لسبب أو لآخر، ولكن شعوري ذلك كان ينعكس على تصرف الناس المحيطين بي. ورغم أني أدرك تماما انه لا يجب آن اخفي شعوري أو وجعي، وليس المطلوب مني آن أكون قويا أمامهم ـ فهم أهلي وأصدقائي، لكن وجدت أن التصرف على ذلك النحو لن يفيدني ولن يفيدهم !

وإذ ذاك.. كنت سرعان ما اكبح غضبي أو اخفي حزني وأتراجع للتحدث مع نفسي! ماذا حدث؟ ولماذا أنا غاضب أو حزين؟ وهل ثمة ما يستحق هذا العناء النفسي؟ هذه المراجعة (التحدث إلى النفس) تساعدني على الرجوع عن المشكلة التي كانت السبب، وتخفف حدة التأزم، وتمكنني من إعداد نفسي بإيجابية لمواصلة ما كنت عليه متحاشيا مسببات ذلك.

وكنت أبين لهم انه لا غرابة في أن أمر أحيانا بشعور مثل الإحباط أو اليأس أو الغضب، فهذه ردود أفعال يمكن أن تنشأ لدى أي شخص يتعرض لضغوط الحياة اليومية قد يعود سببها لنفسه أو أهله أو ماله.

ومن الطبيعي أن اشعر بحزن مرده الإعاقة، ولكن حزني لا يكون طاغيا بحجم شدة إعاقتي! وان كان هذا الإحساس مرتبطا بالإعاقة إلا انه لا يدفعني إلى اليأس أو التوقف عن مزاولة نشاطي اليومي المعتاد.

الانطباعات الـ"مقولبة"

بعضهم لا يتجاوز مجال رؤيتهم أطراف أنوفهم ويصعب عليهم النظر إلى المعوقين ابعد من الأجهزة التعويضية

بعد الاستقرار في مسقط، وعندما بدأت اخرج إلى الأماكن العامة (مركز تجاري، مطعم، حديقة، أو سواها من الأماكن العامة التي يرتادها الجمهور) تعرضت كثيرا لمواقف يمكن تسميتها "النظرات المستغربة". وهي انطباع أولى شائع ليس تجاه المعوقين حركيا، وإنما يتعرض له كل من شاءت له الأقدار أن يبتلي بشكل من أشكال الإعاقة.

كان وقعها في البداية مزعجاً.. مربكاً، وبغيضاً! وأمام ذلك كنت لا أجد مناصا، وأنا اخفي ضيقي.. اكبت خنقي، واستر كآبتي، من الهرب وترك المكان. تكرر هذا الموقف كثيرا، وكان لا بد من مراجعة الذات! فلا يمكن أن امضي بقية عمري مطاردا بتلك المواقف السلبية التي تبدر من الآخرون والتي يأتي معظمها عفوياً.

وبعد مراجعة متأنية مع نفسي واستعادة كل ما تعلمته أثناء فترة التأهيل للتعامل مع هذا النوع من السلوك، قررت آن لا ادع مواقف كتلك تحول بيني والاستمتاع ببعض مباهج الدنيا. وكان عليّ آن أتصرف حيال ذلك بحجم المواقف نفسها. فهي في الحقيقة لا يمكن تحميلها اكثر مما تحتمل ولا تستدعي كل تلك المعاناة. فلن ادع "غافلا" أو من يعوزه الوعي أن يدفع بي إلى مغادرة المكان ..التلعثم، أو غض البصر لأن هذه الأنماط من السلوك، رغم تفهمي لأسبابها، ولا رغبة لي بان أكون فظا، لا تستحق عناء التوتر والإحراج.

فأعاود الذهاب إلى تلك الأماكن وسلاحي الثقة بالنفس والعزم على تجاهل تلك النظرات السلبية. وكنت أرد عليها إما بابتسامة أو نظرة أو كلمة. وبمرور الوقت لم تخف تلك النظرات، وإنما وقعها عليّ أخذ يخف تدريجياً حتى تلاشى.

وعلى عكس ذلك يتفادى بعض الناس "النظرة العابرة" إليّ ظنا أن ذلك قد يسبب لي حرجا أو أنني سآخذ الموقف بمعان أخرى، ووجدت أن أفضل الطرق لتحرير الشخص من الارتباك أو التكلف هو النظر إليه بابتسامة تحرره من الحرج.

كما أني لا أواجه صعوبة في التعامل مع الأشخاص الغرباء، ولكن أعتقد أنهم يجدون صعوبة أولية في التعامل معي. وأعني بالتعامل هنا ليس تقديم خدمات أو سواها من المعاملات وإنما التحدث وإقامة حوار ثنائي مع الآخر لفترة من الوقت .

فقد كنت انظر إلى الشخص في عينيه، بتحدث عن الأمور التي يتبادلها شخصان جمعت بينهم رحلة سفر بالطائرة أو قاعة الانتظار في المستشفى أو سواها من اللقاءات العابرة، علماً أن الدراسات الاجتماعية تظهر أن مستخدمي الكراسي المتحركة يجب آن يبذلوا في غالب المواقف جهدا إضافيا لإشاعة الألفة مع الآخرين عند التحدث إليهم أو إذا جمعهم عمل أو مصلحة وهذا ربما يعود إلى وضوح إعاقتهم .

وثمة أشخاص لا يتجاوز مجال رؤيتهم أطراف أنوفهم ويصعب عليهم النظر إلى المعوقين ابعد من الأجهزة التعويضية: كرسي متحرك وأطراف صناعية وسواها! وهي لسوء الحظ مواقف

يتعرض لها معظم المعوقين. ويفترض هؤلاء الناس سلفا قصور القدرات العقلية والمهارات المهنية لدى الإنسان الذي ابتلي بأي نوع من القصور الوظيفي في أي جزء من بدنه، سواء قصوراً حركياً، بصرياً، أو سمعياً .

ويطلق هؤلاء أحكاما تعرف بالانطباعات الـ"مقولبة" (رأياً مبسطاً لحد الإفراط المشوه) وينسحب هذا النوع من التفكير على جوانب أخرى من شخصيته غير تلك المتصلة بطبيعة الإعاقة: كأن يفترض أن المصاب بكسر في الظهر وبالتالي شلل في الأطراف السفلية هو أيضا يعاني من قصور في قواه العقلية !ويعتبر التفكير المقولب أهم السلبيات التي تعيق اندماج المعوقين في مجتمعاتهم. وهنا يصبح المعوقون نتاج تفكير فئات من المجتمع يمكن أن نطلق عليّهم المعوِّقين (بكسر وشد الواو(

مواقف هؤلاء الناس أو انطباعاتهم تجاه المعوقين يمكن تلخيصها فيما يأتي:
•الشعور بالشفقة والأسف والرثاء تجاه الشخص المعوق والذي يسفر عنه تصرف اقرب إلى التعالي أو التفضل بهذا الشعور
•الافتراض أن الإعاقة الجسدية تنسحب على القوى العقلية ـ وهو ما أتيت على ذكره في الفقرة السابقة
•انزعاج شخصي وقلق من التواجد إلى جانب صاحب إعاقة
•الافتراض أن الشخص المعوق يحتاج دائما لمد يد العون وبالتالي يتم تجاهله

إن "التسامح" ـ إذا صح التعبير ـ مع تلك المواقف وفهم الأسباب التي تدفع بعض الناس إلى التصرف على ذلك النحو يستدعي النظر إلى قضية الإعاقة في سياقها الاجتماعي والتاريخي. ففي مجتمعات كثيرة، وحتى وقت قريب، فرضت عوامل اجتماعية كالجهل والعصبية والخرافة أحيانا عزلة قهرية على الشخص المعوَق، فكان يواجه التهميش والإهمال ويصبح وجوده خزيا على أسرته، ويتعرض لكثير من أشكال التمييز بين اخوته وأفراد أسرته ناهيك عن المجتمع ككل. وكان محيط حياته يقتصر على جدران المنزل الأربعة، فهو محروم من التعليم وممارسة حياته كأي إنسان آخر في المجتمع.

ولأنه يعيش في بيئة اجتماعية تتجاهل ابسط حقوقه الآدمية كالعمل والزواج أو التدرب على حرفة يرتزق منها، تصبح حياة المعوق عبئا على الأسرة وتغدو غير جديرة بان تعاش، فهو عاجز عن إطعام نفسه.. دع جانبا التفكير في الزواج وتكوين أسرة خاصة به !

هذا على الجانب الأسرى، أما على المستوى الاجتماعي فقد زاولت المؤسسات العاملة في مجال رعاية المعوقين عملية "الإنابة "عنهم، حيث كان معظمها يفتقر لوجود أعضاء معوقين فيها.. خاصة في مواقع اتخاذ القرار، وبالتالي فان هذه المؤسسات التي أنشئت أصلا لرعاية المعوقين وتوفير السبل لدمجهم في المجتمع كانت تمارس دون آن تشعر التمييز الذي تسعى إلى إزالته!

وعندما تحسنت نظرة الناس في العقود الأخيرة للمعوقين فان هذا التحسن لم يتجاوز الاعتقاد أن الشخص المعوق يحتاج دائما لمن يرعاه ويحسن عليه ويشفق لحالته! ولشد ما يغيضني عندما يوصف شخص ما بكلمة "مسكين" دلالة على إعاقته!

ويظن أيضا، أخذا بالمثل القائل "كل ذي عاهة جبار!"، أن الإعاقة تولد في صاحبها ملكة الإبداع وتجبره على اكتساب مهارات وتطوير قدرات يتفوق بها على غيره من الناس تعويضا عن ما يفقده ـ أي انه مطلوب من كل معوق أن يكون طه حسن آخر أو "بتهوفن" ثان أو ذائع الشهرة

عالم الفيزياء المعاصر ستيفن هاوكينج. وهذا الاعتقاد، وان كان تمييزاً إيجابياً، إلا انه في النهاية يضع على الشخص المعوق عبئا آخر ومن ثم هو لا يختلف عن التفكير المقولب.

إن الأشخاص البسطاء غير ملامين في هذا التفكير النمطي "المقولب" في ظل غياب سلوك اجتماعي توعوي يشجع أفراد المجتمع على التقرب والاتصال بالمعوقين وتهيئة مناخ اكبر للاختلاط بهم سواء ضمن ترتيبات خاصة أو في مناشط عامة.

ولعل بعض المعوّقين يتحمل جانبا من انتشار هذا النوع من التفكير حين يستسهل الاعتماد على الآخرين ويركن إلى الشعور أنه ضعيف وغير قادر على إدارة حياته.

تغيير ردود أفعال الآخرين تجاه الشخص المعوق يبدأ أولا بتغيير سلوكه ـ هو ـ تجاه نفسه من خلال تطوير قدراته وإمكانياته والتحلي بالثقة والمطالبة بتطوير أساليب وبرامج تعزز قواعد تكافؤ الفرص وتتيح له ممارسة دور اكبر فيما يخص حياته .

إن إحساس المعوق بأهميته كفرد منتج وقادر على المساهمة في حياة مجتمعه، وإبراز مهاراته المكتسبة أو إظهار القدرة على اكتساب الجديد من المهارات، احد العوامل الرئيسية التي تصوغ شكل الموقف الذي يتخذه الآخرون منه. بيد أن تغيير الأفكار والمواقف لا يأتي بين ليلة وضحاها، وإنما هو عملية بطيئة تتبلور عبر متواليات من التعلّيم والتوعية واثبات الذات ودحض الأفكار المقولبة!

واهم من كل ذلك بذل جهود منظمة لشن حملات إعلامية توصل للجمهور مبدأ أن المعوَقين ليسوا إلا مواطنين يتمتعون بنفس الحقوق والواجبات مثل غيرهم، ويجب ألا تحول إعاقاتهم دون الحياة في المجتمع بشكل طبيعي بلا تهميش أو تحيز .

وأؤكد هنا، في ضوء تجربتي، أن نظرة المعوق إلى نفسه هي من أهم العوامل التي تغير التفكير والسلوك السلبي تجاهه. فإن قدَّم إعاقته للناس قبل أن يقدم نفسه ومهاراته، فان الآخرين سيعاملونه على ذلك الأساس. فأنا اقدم نفسي من خلال من أنا وليس ما هي إعاقتي، وانظر إلى نفسي بإيجابية قبل آن اطلب ذلك من الآخرين.

لست بطلا ولا اطلب بطولة!

أقول "لا" عندما أظن أنها الرد الصحيح، وأقول "نعم "بإرادة لا تنقصها القناعة ولا تفرضها الظروف أو الإحساس بمركب النقص

بحكم تجربتي وقراءتي لكتابات كثير من المتخصصين واطلاعي على تجارب آخرين عرفت أن تبعات الإعاقة، سواء الاجتماعية أو الصحية ـ والعلاقة واردة هنا ـ تتباين من شخص لآخر حسب خلفية المعوق الدينية والاجتماعية ومستواه العلمي والثقافي، فضلاً عن درجة وعيه بإعاقته. وظني أن من يملك بعض هذه المقومات يستطيع وحده مواجهة تحديات الإعاقة والمعوقات التي تفرضها .

فبالانسجام مع الذات والثقة بالنفس والاعتزاز بها، يستطيع المرء تجاوز تحديات الإعاقة من خلال معالجتها بعقلانية بعيدا عن أية ردود انفعالية، و"فهم" ردود الأفعال السلبية على أساس خلفيتها الاجتماعية ومن ثم استيعابها.. خاصة إذا صدرت من شخص لم يحظ بمستوى من الوعي والثقافة.

وفي هذا الصدد يحضرني موقفا آخر تطلب مني تحديد رد فعل فوري. فقد كنت بصحبة صديق نجلس في مقهى بأحد المراكز التجارية. وجاءت فتاة بارعة الجمال وجلست على الطاولة المقابلة لي. وكان من الطبيعي أن يقف نظري عليها حتى وان لم أشأ .

ذلك الموقف دعاني إلى التفكير: هل انظر إليها كما ينظر أي رجل لامرأة وقع بصره عليها. وإذا افترضنا أنها من جنس الغواني اللاتي يصدق قول الشاعر فيهن "... يغرهن الثناء" كيف ستستقبل نظراتي! وقلت لنفسي "لا يهمني كثيرا ماذا ستفكر هي: استصغرت نظرتي لها.. استهجنتها، لا يهم. فكل ما يعنيني الآن هو آن انظر إليها كما ينظر أي رجل لأي امرأة.. وسوى ذلك لا يعنيني بشيء!

ويشكل شعوري بذاتي أهمية بالغة في صياغة أسلوب علاقتي بالناس. وأحاول آن اسحب تأثير ذلك على مظهري الخارجي، طريقة كلامي، وكيفية تصرفي في حياتي اليومية. هذا الشعور بدأ بعد سنوات قليلة من الإصابة، وجاء عن قناعة أنني شخص جدير بالاهتمام! بالتأكيد لي هفواتي وأخطائي وسلبياتي، لكني أيضا ـ ودون تواضع لا مكان له ـ املك خصالاً يفتقرها كثيرون .

هذا الإيمان بالذات ـ وليس الغرور بها لأني لا املك ما يدعو للغرور ـ اخذ يكبر بمرور الوقت، وبدأت اشعر أن ثقتي بنفسي فاقت ـ حتى ـ تلك التي كانت قبل الحادث.

لماذا حصل هذا؟ لا ادري! وهذا ليس مجال أستطيع الإفتاء فيه، لكن أخذا بالمثل الذي يقول "اسأل مجرب ولا تسأل طبيب"، قد" ينط" لي قارئي ويقول "ايش معنى هذه؟" أو بالفصحى.. لماذا توقفت عن الإفتاء هنا وأنت مارسته منذ السطر الأول في هذا النص؟". وهو على حق !

وأقول أن كل واحد منا يختلف عن الآخر: يتفرد بخصائص وخصال.. إيجابيات وسلبيات، وهي ليست سوى محصلة تجارب عديدة تداخلت وتفاعلت لتشكل شخصية "الفرد". وليس أدل على ذلك من كلمة الفرد نفسها التي تربط بين الشخص وتميزه، فالفرد في اللغة تعني الشخص الذي لا نظير له ..ليس لتفوقه وإنما لاختلافه. ويأتي صوت القارئ ذاته ليقول "وفسر الماء بعد الجهد

بالماء ."

وأقول أن أحد الأسباب التي ولدت لدي هذه الثقة هي أنني استطعت خلال سنوات إعاقتي الطويلة أن أعيش مستقلا ومعتمدا على نفسي.. لم اطلب قرشا من أحد، ولم ير أحد دمعتي ولم تسمع أذن أنتي! وبقدر جدارتي في توفير مقومات نجاحها، أصبحت الحياة حينئذ ـ بالنسبة لي ـ جديرة بان تعاش وان تكالبت عليّ الصعاب والمعوقات .وهنا تلعب محصلة تجارب الفرد الحياتية والرؤية الشخصية للأمور دورا في صياغة موقفه وتحديد الاتجاه الذي يريد آن يسلكه.

وأنا هنا لا أتحدث عن روتين الحياة اليومية التي اعتمد فيها على الآخرين في إنجاز ما لا يقل عن 70%منها ـ سوى العمل الذي أؤديه بالكامل وعلى اكمل وجه ممكن ولله الحمد ـ وإنما اقصد استقلال القرار فيما يعني كل جوانب حياتي. أقول "لا" عندما أظن أنها الرد الصحيح، وأقول "نعم "بإرادة لا تنقصها القناعة ولا تفرضها الظروف أو الإحساس بمركب النقص .

وقبل أن يأتي صوت هذا القارئ أو ـ ربما ـ صوت من داخلي يسأل مستهجنا: هل تظن انك، إذ ذاك، تسطر بطولة أو ترسم لمن هم في مثل حالتك نموذجا؟ وارد: لا! وان كنت هنا اشعر أن الغرور يلامس كلماتي. ففي الأولى ـ أي الاستقلال والاعتماد على النفس ـ من حقي آن افتخر بنفسي لأنه رغم شدة إعاقتي (شلل رباعي كامل)، واصلت العمل واجتهدت، قدر استطاعتي، طوال هذه السنين في آن لا يكون وجودي في الوظيفة شفقة أو إحسانا ـ وان كان امتناني لعدد من الناس الذين آمنوا بي وأتاحوا لي الفرصة لإثبات ذاتي وأمارس إنسانيتي لا تفي الكلمات حقها. أما الدمعة والأنة، فأنا لست بهما بطلا ولا اطلب بطولة، وإنما أنا حريص على أن لا افتح للإعاقة ثقبا تبث منه السم في روحي مثلما قتلت به جسدي. ولولا هذا العناد لمزقت معاولها نفسي أشلاء!

هواجس

لم تكن تبعات الإعاقة هاجسي لأني أخاف الموت ـ وذلك بأمره سبحانه وتعالى ـ لا.. بل لأني أخشى الفقر

مضت عليّ فترة قبل عودتي إلى عمان من بريطانيا وأنا أفكر في اليوم الذي سيأتي فيه زائر ـ قريب أو صديق ـ ويخرج من جيبه بضعة ريالات يدسها تحت وسادة فراشي. يا الهي كم كنت أخشى هذا اليوم!

ولعل هذا الهاجس كان له دور رئيس على إصراري وعزمي على مواصلة العمل وتأمين حياتي من العوز والعيش بكرامة توفر لي الحصانة وتمنحني القوة لأقول "لا" أو "نعم" متى شئت ولمن شئت بقناعة لا يفرضها مركب نقص أو تحكمها حاجة !

ويحضرني هنا موقف سخيف استدعى رداً اسخف. فبعد عودتي إلى الشركة ومواصلة العمل، زارني مندوب شركة التأمين التي كانت سيارتي مؤمنة لديها، وجاء يحمل مظروفاً يحتوي على مبلغ خمسمائة ريـال تعويضا عما لحق بي من ضرر! هكذا قرر المسئولون في شركة التامين أن إصابتي لا تساوي اكثر من هذا المبلغ ـ ما أرخصنا !!

لم أتمالك أعصابي، ودون اخذ آو رد، طلبت من المندوب أن يعود إلى شركته ويعيد المظروف لمن اتخذ قرار التعويض، حتى ولو كان أكبرهم، ويقول له على لساني، وان كان ردا بذيئا "كرسه". وهي كلمة عامية لم أجد في قاموسي اللغوي ما يمكن أن يعبر عن إحساسي في ذلك الوقت.. رد لست نادماً عليه !

ليس ثمة أحقر من أن يعوض إنسان أصيب بإعاقة أتت على معظم جسده بمبلغ اقل ما يمكن أن يقال عنه انه تافه بقدر تفاهة من سعر إصابتي في شركة التامين تلك!

إن التفريط بالحقوق بسبب الفشل في التعبير بصدق عن الشعور والأفكار والقناعات ينشأ إذا كان أسلوب التعبير عنها دفاعيا أو تصاحبه كثيراً مفردات التردد والاعتذار. إذ أن الإيحاء بالضعف في التعبير عن النفس قد يسمح للآخرين بتجاهلك أو لا يكترثون لوجهة نظرك. لقد تعلمت أن الإيماءات الخجلة التي تعبر عن الضعف والقلق والاستكانة أو تلك التي " تقلل من الذات " تعمل على أضعاف تأثير ما أريد قوله وتفرغ كلامي من مضمونه!

أحيانا كثيرة يشعر الناس ـ كل الناس ـ بالإزعاج والغضب عندما يتجاهل الآخرون وجهة نظرهم.. شعورهم، ورغباتهم.. هذا إذا كانت مشروعة طبعا !وبالنسبة لي، تأتى عليّ أوقات اعجز فيها عن تحقيق شيء اشعر انه من حقي أو اطلب من أحد آن يكف عن تصرف أو فعل لا يرضيني .

إن ظروف الحياة الإيجابية والدعم المناسب وحسن الدعابة تلعب دوراً عظيما وتسهم في تحسين مستوى حياتي وأظن أن ذلك ينسحب ـ وان تفاوتت تأثيراتها من شخص لآخر ـ على معظم المعوقين .

وثمة ظروف كثيرة يشكل معظمها أو بعضها عاملاً فاعلاً في تحسين حياة المعوق، ومنها: العمل، والتمتع بصداقات وثيقة، وعلاقة أسرية متينة، ومساعدة الآخرين وتشجيعهم، ومستوى التعليم، التصالح مع أو فهم الذات، وموهبة للتعبير عن النفس بطريقة إبداعية (الرسم، الغناء، الشعر.. وسواها من تلاوين الإبداع)، الاستمتاع بهوايات (القراء، سماع الموسيقى، والمشاركة في أنشطة عامة) والضمان المالي، والحياة الزوجية السعيدة، وإقامة علاقات مرضية مع آخرين.

وبالمقابل هناك ظروف أخرى قد تحول حياة المعوق إلى "جحيم" لا ينفع معها الصبر ولا العزم ولا القوة، ومنها: مشاكل مالية، شدة الإعاقة، صعوبة الحصول على الوظيفة، وصعوبة القبول به زوجا إذا كانت إعاقته تتيح له ذلك، وصعوبة الحصول على الشخص المناسب للعناية به إذا كانت إعاقته تستدعي ذلك.

ولا يفوتني التنويه هنا أن متطلبات الشخص المعوق جسدياً مكلفة جداً !فهو دائماً بحاجة إلى أجهزة تعويضية ومتابعة طبية وعلاج طبيعي مناسب، وأجهزة للتمارين تحافظ على وضعه الصحي، وأدوات خاصة مكلفة لا تتوفر كثيراً في المستشفيات العامة، بالإضافة إلى تهيئة مرافق المنزل لتكون صالحه لاستخداماته، وسيارة مهيأة وأشياء أخرى من ضروريات الحياة.

وأعود إلى سياق حديثي السابق حول التفريط بالحقوق نتيجة الفشل في التعبير عنها بصدق. فقد تعين عليّ مع تكرار مثل هذه المواقف استخدام أسلوب أطلقت عليه "أنا هنا!" إذا أردت تحقيق إرادتي. وخلاصته هو الدفاع عن أفكاري وأحاسيسي ورغباتي بالتعبير المباشر، مع الأخذ بالاعتبار شعور الآخرين طبعاً .وهو أسلوب ينطوي على الاحترام لي وللغير ويتطلب أن أتحدث بوضوح وان تكون كلماتي دقيقة ومحددة.. وقبلهما أن تكون مقنعة !

ويحدث في بعض الأحيان أن اقف عاجزا عن التعامل مع ضغوط الحياة اليومية. ولا أجد حلاً يمكن أن يخلصني من تأثير تلك الضغوط إلا أن هناك بعض الطرق التي أتقنتها لخفض تأثير هذه العوامل على صحتي النفسية، منها تجاهل كل ما يحدث وكأنه لا يقع، حيث أضع نفسي في وضع الاسترخاء التدريجي العميق للذهن والأعصاب والمصحوب بتمارين التنفس. وهذا يساعد على خفض التوتر النفسي والجسدي أيضا!

ويتفق الأطباء والمتخصصون أن الضحك يخفف تأثير الضغط النفسي على الصحة العقلية والجسدية أيضا. ومن المؤكد أن الضحك ليس علاجاً لمواجع الإعاقة، ولكنه دون شك يساعد على تجاوز الاحباطات. ومن تجربتي الطويلة مع الإعاقة اكتشفت أن مشاهدة فيلم فكاهي أو قراءة مقال فيه ما ينتزع الابتسامة أو الاستمتاع بجلسة مع صديق طيب الحديث لها تأثير إيجابي على صحتي البدنية والنفسية.

وثمة أساليب ومهارات كان عليّ أيضا أن احددها خلال السنوات الأولى من التعايش مع الإعاقة لمواجهة تحديات اجتماعية معينة قد تفرضها طبيعة إعاقتي. وهي أساليب تساعدني على آن أفكر في نفسي كشخص أولا ومن ثم كشخص معوق. مثل هذه التحديات الاجتماعية كثيرة، منها تكوين صداقات، أو لقاء ناس جدد .

ورغم أن التعرف على أشخاص جدد بعد الحادث لم يختلف عمَا كان عليه قبله، إلا أن طبيعة إعاقتي وشدتها حدت من اتصالي ولقائي بالناس والوصول إلى أماكن التجمعات (أماكن العمل، أندية، مطاعم، مجالس.. الخ)، لذلك فأن صداقاتي بعد الحادثة أصبحت اقل عدداً ولكنها اكثر "جودة "حيث توثقت علاقاتي بمجموعة من الاخوة كنت لا اعرفهم أو أن معرفتي بهم كانت

عابرة، وازدادت قوة مع بعض الأصدقاء القدامى.

وبعضها ـ أي التحديات ـ مرتبطة مباشرة بالإعاقة، مثل أن يسأل "جرسون" المطعم الشخص المرافق لي: "ماذا يأكل؟" وفي هذا السياق لي بعض التجارب منها: قصة الممرضة التي ظلت تتحدث إلى مرافقي، دون آن تلتفت إليّ ولو برمشه عين، عن طبيعة الأدوية التي وصفها الطبيب وأين مكان قسم الأشعة وكلام أخر متعلق بزيارتي للطبيب ذلك اليوم .

لم اعترض على سير الحوار حتى أنهت حديثها، وعندما تحدثت إليها التفتت إليّ وكأنها تكتشف وجودي لأول مرة، قلت لها وبأسلوب هادي جدا وتهكمي جدا أنها أضاعت وقتي ووقتها، فصاحبي لا يجيد التحدث بالإنجليزية وكان الأحرى بها آن تتحدث إليّ مباشرة. ورغم أنني تابعت كل ما قالت وكان يمكن للموقف آن ينتهي عند ذلك الحد، إلا انه كان عليّ أن أسجل موقفا يذكر هذه الممرضة في المرة القادمة إذا تعاملت مع شخص معوق أن لا تتجاهله، ولو لم افعل ذلك لتركت المكان وفي نفسي بعض من غصة !

ورغم أن كل هذه التحديات، وان كان بعضها يبدو عادياً لمن ينظر إليها متجردا، تشكل مصدراً للإزعاج ويتعذر تبريرها، إلا أنني أتفهم تفكير وردود أفعال الآخرين حين تكون أفعالهم مجرد ردود غافلة أو مرتبكة وغير واعين لتأثير مواقفهم .

وثمة اعتقاد أن المعوَقين يصابون بـ "البرانويا) "عقدة عند الفرد تجعله شديد الارتياب في الآخرين) حين يعتقد الشخص انه مضطهد وحقوقه مغتصبة وحياته مهمشة وكرامته مهدورة، وتبدو له ردود أفعال الناس وكلماتهم قاسية ويقصد بها الإهانة والتصغير. وهذا انطباع آخر مقولب وان تغلف بتفاسير سيكولوجية.

عزلة ليست من اختياري

تفرض آلام الإعاقة عزلة قهرية ليست من اختياري، فيتعاظم إحساسي بإعاقتي وتضيق الحالة الآدمية في داخلي!

تفرض آلام الإعاقة ـ وهي كثيرة في مثل إصابتي ـ واشدها آلا م "جذور الأعصاب" أحيانا عزلة قهرية ليست من اختياري، ومع التكرار تضيق الحالة الآدمية في داخلي وافقد "شهية" الحياة ويقتصر اهتمامي بها بمجموعة أفعال لا تتجاوز المستلزمات الأساسية للعيش، كالحاجة للطعام لدرء الجوع والقراءة لقتل ساعات اليقظة وليس لرفد الفكر وإثراء الحصيلة المعرفية.

ويتعاظم في هذه الأوقات إحساسي بإعاقتي ويخيل لي أنني في صراع دائم مع الآلام التي تزكيها هذه الإعاقة.. صراع نتائجه مغايرة لكل أنواع الصراعات .فانتصاري هو أن يستمر الصراع! هي تريدني أن ارضخ، اضعف، ارفع الراية البيضاء، استكين، ابكي، وأسأل" لماذا أنا؟" لكني أقاوم.. ارفض، وارفع مستوى الصراع والتحدي إلى مرتبة "النضال". وهذا يتطلب أن أبقى قويا واكثر قدرة على المواجهة، فإما أن ابقي الصراع قائماً أو انكسر .

ويضنيني عبء التفكير في الأيام القادمة :سنوات الشيخوخة والوحدة والوهن! ويثير الموقف سؤالاً لا مناص منه.. إلى متى يمكنني أن أقاوم؟ هنا ارتعد خوفاً! فزمن المستقبل ليس زمني ولن يكون لصالحي! وظني أن قدرتي ـ كأي إنسان ـ سوف تضعف على المقاومة، لكن افضل ما يمكن عمله هو الحيلولة دون أن لا تكون تبعات الإعاقة في ذلك الزمن مفاجئة وثقيلة، وربما استطعت بأدوات أخرى أجهلها الآن إطالة أمد هذه المواجهة إلى أن يشاء الله.

ورغم سلبيتها، إلا أن إفرازات هذه المعاناة لا ترسخ اليأس المطلق وإنما توقظ رغبات منهكة تستدعي رؤية أخرى.. تفاسير مغايرة للناس والحياة وتجسيد معانٍ للأشياء تتعدى ظواهرها. وتولد لدي مواقف إيجابية تجاه الذات مسنودة بإنجازات ما حققته فيما مضى من أيام تعايشي مع الإعاقة. فلقد استطعت مواجهة كل تلك الآلام والمعاناة، وتسنى لي الاستمرار طوال هذه الفترة في الحياة وبرغبة.. وأنا من اجتمعت عليه الخطوب من كل حدب وصوب.
فتبدو الحياة عندئذ فرصة نادرة وقصيرة. ولابد من جعلها اجمل وان فقدت حيويتها، واكثر احتمالا وان بدت قاسية. ما أشد حماقة الإنسان عندما يقرر ـ وبمحض إرادته ـ هدر إمكانيات دنيوية والعوم على وجه الأرض دون غاية يسعى لتحقيقها أو هدف يروم بلوغه.

أن الاحتفاظ بعلاقات اجتماعية نشطة بين أهلي ومجموعة من الأصدقاء المخلصين ممن يحيطوني بالعناية والاهتمام ويضفوا البهجة على نفسي يشكل أهمية عظيمة لمواصلة الحياة رغم المعوقات والعقبات التي تفرضها الإعاقة، وهي إحدى الركائز التي تقوم عليها حياتي .
وكم سيكون الأمر رهيباً وقاسياً لولا الظروف والمواقف الإنسانية التي تظافرت لمساندتي !

كما أن الرفقة الطيبة والتفاعل الشخصي والقناعة بالذات والإحساس بالأهمية لنفسي وللآخرين، من خلال العمل والعلاقات القوية بالأهل والأصدقاء والانتماء للمجتمع كفرد نافع، كلّ هذا يمدني بالقوة لمواجهة التحديات التي تفرضها المواقف السلبية التي يرصدها فقط من هم في وضعي .

فأنا أرى نفسي معوقاً، لكني في أحيان كثيرة أنسى أو أتجاهل هذه الإعاقة. ولا أشعر بمركب النقص أو أغرق نفسي في اليأس متسائلا "لماذا حدث هذا لي أنا؟" فقد رضيت بالقضاء والقدر.

معوَّقون لا معوقين

القواعد الموحدة لتحقيق تكافؤ الفرص تمنح المعاقين فرصا على قدم المساواة مع المواطنين الآخرين

زارني مؤخرا صديق من بريطانيا، فأخذته في جولة لمشاهدة بعض مواقع الجذب السياحي في المنطقة، والتباهي (أو الفشخرة كما نقولها بالعامية) بمستوى ورقي مرافقنا السياحية ومنها أحد الفنادق الفخمة.. ولم يخب ظني! فما كدنا ندخل البهو الرئيسي للفندق حتى صاح معبرا عن اندهاشه وإعجابه Oh God.. It Is Heaven on earth: أي يا إلهي إنها الفردوس. واستمر اعجاب الضيف يزداد كلما توغلنا داخل الفندق.

وتعبيراً عن امتنانه بكرم الضيافة قرر الضيف أن يكون مضيفاً فعزمني على وجبة عشاء توقعت انها ستكون "محترمة" في مطعم الفندق المطل مباشرة على شاطئ البحر الذي لم يسعدني الحظ برؤيته وانما سمعت عنه، وان كنت اعلم أن هذه العزومة ستقصم ظهر محفظته. ترددت أولاً، ليس رأفة بمحفظة صديقي، وإنما خوفا أن يتحول الموقف إلى "سيرك" يشارك في فعالياته بعض الجمهور، إلا أنني وافقت تحت إلحاح الضيف المضيف ورغبته في تناول وجبة تزيد إعجابه بالفندق اكثر فأكثر.

حدسي كان في مكانه! فقد تطلب وصولي إلى المطعم الاستعانة بعضلات اثنين من موظفي الفندق من صنف ذائع الشهرة "هوجن " بالإضافة إلى الضيف وقريب كان برفقتنا لحملي أنا وكرسيي المتحرك لنزول الدرجات أو صعودها في الطريق المؤدية إلى المطعم وتقديم عرض بهلواني استمتع به بعض زوار الفندق!

وبعد عملية مضنية من الرفع والتنزيل وأنا متشبث بمقبضي الكرسي بكلتا ذراعي تحسباً لأي تهاون من جانب أحد "الهوجنيين" أو صاحبي وصلنا إلى المطعم. وعلى المدخل، وبعد فترة وجيزة من التقاط الأنفاس وتقديم الشكر، القيت نظرة متفحصة لترتيب طاولات المطعم، قبل الدخول، وغايتي تحديد المسار الذي عليّ أن اسلكه حتى لا اقع في مطب آخر يزيل ما تبقى لدي من شهية للأكل! وتمادياً في" الفشخرة" وتعويضا عن الإحراج الذي وقعت أوقعت فيه ضيفي رأيت انه من حقنا أن نطلب طاولة تطل مباشرة على البحر، لكن كان لموظفي المطعم رأي آخر. فقد اعتذروا بدعوى أن طاولات الصف البحري محجوزة كلها رغم أن المطعم كان "يصفر فيه الريح" حسب المثل العامي المعبر عن خلو المكان وظل "يصفر فيه الريح" عندما غادرناه أيضا!

ولكن عرضوا عليّنا إحدى الطاولات الأخرى إلا أن انخفاض الطاولة، بل ـ للإنصاف ـ ارتفاع الكرسي المتحرك، حال دون دخول الجزء الأمامي منه تحت الطاولة. وبعد فشل محاولات البحث وتجربة عدد من الطاولات، لم يكن أمامي سوى الاكتفاء بإدخال قدمي تحت الطاولة فقط وظل جسمي بعيدا عنها. أي كان عليّ خلال تناول الوجبة "الموعودة" أن احني ظهري إلى آخر مدى لكي أتمكن من إمساك حبات "الربيان" التي ظلت تجري في الصحن وكأنها لا زالت ترغش في البحر!

وعندما تركنا المطعم لم يكن ظهر محفظة صاحبي منقصماً فقط، بل كان ظهري أيضا !

"فشخرة الفندق" بدأت بنية حسنة لاطلاع صديقي على تحفة معمارية رائعة ومرفق سياحي من الطراز الأول ـ ترويجاً مجانياً للسياحة، وانتهت بإعادة الطعام الذي أكلته بسبب الرج والخض الذي تعرضت له طوال طريق العودة من المطعم إلى موقف السيارات.

بالتأكيد سيحمل صديقي ذلك الانطباع والانبهار الذي عبر عنه بتلك الجملة (ويا ليته ما عبر!) هدية معه يعرضها كلما سنحت له الفرصة للتحدث عن زيارته لبلدنا، لكنها ستظل دائماً ذكرى منغوصة بتلك التجربة!

أن يحصل فندق على المركز الأول بين المرافق السياحية في الشرق الأوسط أو يصنف في قائمة افضل عشرة فنادق في العالم هو دون شك إنجاز عظيم للسياحة في منطقتنا، لكن ذلك لا يعفي أحدا من اللائمة التي يمكن إيجازها بكلمة واحده.. "عيب"!

تكافؤ الفرص

تعني صياغة نهج يضمن توفير إمكانات مناسبة تتيح للمعوقين ممارسة حياتهم على غرار الآخرين

تلك التجربة تركت في نفسي مرارة بغيضة فعزمت على كتابة مقالة كنت آمل أن تساهم في توعية المجتمع بهموم وشجونهم. التالي بعض ما جاء فيها:

تبنت دول الخليج، انسجاماً مع التطور الذي حققته في ميادين حضارية كثيرة وعلى غرار معظم الدول المتحضرة، القوانين المعيارية أو القواعد الموحدة لتحقيق تكافؤ الفرص للمعوقين التي اوصت بها لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان الخاصة بالمعوقين والتي تتضمن التزامات أخلاقية نحو اتخاذ قرارات ووضع تدابير وبرامج تمنح المعوقين فرصاً على قدم المساواة مع المواطنين الآخرين .

ومفهوم الإعاقة في نصوص هذه القواعد يربط بين اوجه القصور الوظيفي في عضو من جسم الإنسان والمعوقات التي تفرضها البيئة المادية (العوائق المتصلة بالتصميم الهندسية والمواصفات المعمارية للمباني والمساكن والمرافق العامة التي تحد من حركة المعاقين وتحول دون استفادتهم من هذه المرافق) ما يحول دون تكافؤ الفرص ـ أي أن الإعاقة هي نتاج معوِّقات بيئية واجتماعية .

وتكافؤ الفرص في نفس السياق يعني صياغة نهج يضمن توفير إمكانات مناسبة تتيح للمعوقين ممارسة حياتهم على غرار الآخرين واتخاذ التدابير اللازمة لإزالة المعوقات وتكييف البيئة المادية والاجتماعية وتعديل التصاميم المعمارية للإيفاء بمتطلباتهم ومراعاة حاجتهم لوجود مرافق تسهل وصولهم إلى كافة المباني العامة، كالمنحدرات لتسهيل دخول مستخدمي الكراسي المتحركة، وبالتالي الاستفادة من الخدمات وفرص العمل والأنشطة الترفيهية وسواها دون حواجز تقف حجر عثرة في سبيل تحقيق المشاركة والمساواة الكاملة.

والتزاما بذلك سعت المؤسسات المعنية برعاية المعوقين لوضع واعتماد قواعد تحميهم وتزيل عن كاهلهم كافة الوان التمييز وتوفر لهم الفرص المناسبة لكي يثبتوا قدراتهم ومهاراتهم، إلا أن هذه القواعد لا تجد، وللأسف، طريقها للتنفيذ عند بعضهم.. إما لأن القائمين على هذه المرافق لا يأخذون هذه القواعد على محمل الجد ولا يدركون حجم المعاناة التي يفرضونها على المعوقين أو لعدم وجود آلية لمتابعة التنفيذ.

ومع أن هذه القواعد لا تملك قوة القوانين الملزمة إلا أنها أصبحت على مستوى العالم كله بحكم خصوصيتها الإنسانية دليلاً على التحضر (لا التمدن) ومؤشراً على الوعي الاجتماعي .وظني أن هذه القواعد لو اعطيت فقط نفس أهمية الاشتراطات الهندسية والمعمارية والبيئية التي تفرض على المباني الجديدة، مثل واجهات المباني والارتدادات التي تكفل حرمة الجار ووضع معدات إطفاء الحريق وسعة الأبواب وتوزيعها، لحققنا تقدماً كبيراً لتهيئة البيئة المناسبة للمعوقين.

وأرى أن تطبيق قواعد الأمم المتحدة لا يستدعي تفسيراً، فهي واضحة ولا يكتنفها أي غموض قد يستغله البعض للتنصل من الالتزامات التي جاءت في نصوصها. فعندما تقف المعوقات الهندسية دون الوصول إلى المباني العامة حيث يصبح مستخدم الكرسي المتحرك غير قادر على الحصول

على الخدمات المتوفرة لبقية الناس، وعندما يعجز الكفيف المؤهل عن إيجاد وظيفة توفر له دخلا يلغي اسمه من قائمة المستحقين لمعونات الضمان الاجتماعي.. هنا يجب اتخاذ قرار إلزامي بحق هذه المؤسسة أو تلك لتوفير الوسيلة المناسبة للتغلب على تلك المشاكل. ولا أظن ذلك مطلباً تعجز عنه موازناتها!

قائمة المرافق المعوقة هذه تضم الكثير من المؤسسات العامة والخاصة التي تأخذ بالمثل المصري "اذن من طين وأخرى من عجين". ومما يؤسف له أن ضيق الأفق هذا لا يقتصر على الأشخاص الذين يبرر قصور وعيهم تصرفَهم، وإنما تصدر من آخرين يحملون درجات علمية ويفترض أن يكونوا قدوة ونموذجا يحتذى به .فقد تناهى إلى سمعي أن رئيس مؤسسة ألغى مخصصاً مالياً لا يتجاوز ربع راتبه تقريبا لإنشاء منحدر يسهل دخول مستخدمي الكراسي المتحركة إلى المبنى بدعوى أنها ليست مؤسسة خدمات عامة ولا تقدم خدمات للمعوقين ـ وهو عذر اقبح من ذنب!

تكافؤ الفرص يفترض أيضا تحقيق مبدأ المواطنة. والمواطنة في شكلها العام، دون الخوض في التفاصيل، هي تعبير عن الانتماء للوطن.. انتماء يفرض على الإنسان واجبات ويمنحه حقوقاً . والشخص المعوق مواطن كسواه من المواطنين يجب ألا تحول إعاقته دون اداء واجبات المواطنة في إطار ما تتيح له إعاقته، ولا تحرمه من التمتع بحقوقها.

بيد أن ممارسة المعوق للمواطنة مرهونة بإرادة المجتمع أولاً وإرادته الشخصية ثانيا. فإذا حصل على فرص متكافئة فان ذلك يفرض عليه أن يكون مواطناً فاعلا يساهم في أنشطة المجتمع على كافة اصعدتها.. هذا إذا كانت إرادة المجتمع قد وفرت له السبل لممارسة المواطنة وأتاحت له فرصة المشاركة الكاملة التي تكمن في تهيئة البيئة اجتماعياً واقتصادياً بحيث تستوعب متطلبات إعاقته وتلبي الحد الأقصى من حاجاته وتزيل كافة العوائق التي تحول دون تعليّمه أو تأهيله أو عمله الأمر الذي يؤثر على اكتساب المواطنة بحقوقها وواجباتها والحياة في المجتمع بالشكل الطبيعي وبالدرجة نفسها لمشاركة غير المعاقين.

ذوو الاحتياجات الخاصة

أن تغيير المسميات لن يحل المشكلة وانما سيعفي المجتمع وبعض من بيدهم حلها من المسئولية!

شاع مؤخراً استخدام عبارة "ذوي الحاجات الخاصة" بدلا من المفردة "المعوقين" وهو تعبير يربط تعريف المعاق (المصاب بقصور في وظائف جزء أو اكثر من جسمه) بحاجاته للأجهزة التعويضية: كرسي متحرك لتعويض القدمين وأسلوب الكتابة بطريقة "بريل" للمكفوفين.. وسواها.

كانت كلمة" المعاق/المعوق" عندما أطلقت في الستينيات كبديل عن المصطلحات التي كانت تعبر عن التشخيص الطبي اكثر منها عن الحالة الاجتماعية وتتجاهل عيوب البيئة المادية) المعوِّقات المتصلة بالتصاميم الهندسية والمواصفات المعمارية للمباني والمساكن والمرافق العامة التي تحد من حركة المعوقين وتحول دون استمتاعهم بنفس الفرص والحقوق أو الاستفادة من الخدمات التي تقدمها) جاءت لتبرز العلاقة بين هؤلاء الأشخاص وتلك المعوِّقات من ناحية وتركز على مواقف أفراد المجتمع ومدى وعيهم بطبيعة هذه العيوب واستعدادهم لإزالتها من منطلق تحقيق المساواة وإتاحة الفرص لكافة المعوقين من ناحية أخرى .

لا شك أن التسمية الجديدة "ذوي الحاجات الخاصة" لائقة واكرم لـ" المعاق" كما كانت نفس الكلمة (المعاق) قبل خمسين عاما افضل وقعا من مشلول أو اعمي أو ابكم أو معتوه.. أو غيرها من المسميات التي كانت تطلق على المعوقين.

أن التعبير الجديد لوصف المعوق بذي حاجة خاصة وبالتالي ربط طبيعة إعاقته بالأجهزة والتسهيلات والاحتياجات التي تعوض قصور وظائف أجزاء من جسمه لا يمكن تعميمه على كافة المجتمعات التي لا يزال بعضها يفسر الإعاقة ـ أياً كان نوعها ـ على أنها ضرب من العقاب الإلهي على خطايا أو ذنوب اقترفها الأجداد ويحمل وزرها الأحفاد. نعم لـ"ذوو الحاجات الخاصة" بشرط أن تتوفر في شواطئنا منحدرات يستخدمها المعوق حركياً للنزول إلى البحر دون أن ينزل عن الكرسي ويطلب من الجمهور أن يحملوه إلى البحر، وبشرط أن يقف هذا الشخص نفسه في محطة انتظار حافلات النقل العام للصعود إلى الحافلة بواسطة مصعد ركب في الباب الخلفي للحافلة، وبشرط أن لا يتعرض معوق آخر لما تعرضت له أنا في الفندق، وان يدخل مركزا تجاريا دون أن يتوقف دزينة من الناس يحدقون به !وبشرط، وشرط.. وهي شروط المعوق حركيا دع جانباً إخواننا المكفوفين والصم والمعوقين عقليا وآخرين غيرهم من ذوي الإعاقات.

إذا كان الغرب ـ والمسميات سالفة الذكر جاءت كلها من الغرب ولا ضير في ذلك ـ وصل إلى مستوى لم يعد ثمة ما يعوق الشخص المصاب بقصور وظيفي في عضو من جسمه دون ممارسة حياته بكافة ألوانها، ولم تعد للحواجز والمعوِّقات أي اثر في حياته اليومية، فإننا في العالم الثالث لازلنا" معوَقين" ما دامت سلسة "الشروط" التي أشرت إلى بعضها سابقاً قائمة! أن تغيير المسميات لن يحل المشكلة وإنما سيعفي بعض من بيدهم حلها من المسئولية !

واعتقد أن التخلي عن تعريف المصاب بقصور عضوي بـ"المعوق" هي شهادة اعتراف أن مجتمعاتنا حققت الشروط واستوفت كافة الالتزامات وأكملت تكييف بيئاتها والمرافق العامة

ووفرت الخدمات المساندة والأجهزة التعويضية وعدلت العوائق الهندسية ولم يعد ثمة وجود لعائق يقف دون تكافؤ الفرص والمساواة الكاملة.. أي أننا انتقلنا من مرحلة تذليل المعوِّقات وتوفير الحاجات إلى مرحلة تطوير كفاءات المعوقين ورفع مهاراتهم وإتاحة كامل الفرصة لكي يمارسوا إنسانيتهم دون عوائق مادية ولا حواجز اجتماعية أو نفسية وعلى قدم المساواة مع المواطنين الآخرين.

بيد أن وضعنا في الواقع لا يعكس ذلك! فإذا كان الغرب قطع مراحل عظيمة تجاه مساواة المعوقين بغير المعوقين وأزالت مجتمعاته معظم مظاهر التمييز السلبي والإيجابي، سواء في العمل أو المرافق العامة والبيئات الاجتماعية الأخرى، فان مجتمعاتنا لا زالت بحاجة إلى تغيير نظرة أفرادها تجاه المعوقين وقبل ذلك وضع قوانين ونظم تأخذ بعين الاعتبار الحاجات الخاصة للمعاقين في كافة المرافق! هذا ليس إجحافا أو تنكرا للجهود المتمثلة في كثير من البرامج والنيات الحسنة التي تعمل على تذليل الصعاب أمام المعوقين وتوفير السبل لهم لكي يعيشوا كغيرهم لا اكثر ولا اقل!

المعاشرة الزوجية - غياب الإحساس لا يعني غياب الحواس

أن الحديث عن موضوع المعاشرة الزوجية بعد تعرض الإنسان لإصابة في العمود الفقري عادة ما يتم تناوله بتحفظ وإيجاز لذلك يتفشى الكثير من سوء الفهم والجهل عن هذا الجانب الهام من حياة فئة المعوقين حركياً .

ويعتبر موضوع القدرة على الاتصال والإنجاب، سواء للرجال أو النساء، من أهم الأمور التي يشعر الإنسان بفداحة فقدها عندما يتعرض لحادث يفقده الإحساس في مواضع كثيرة من جسمه، وخاصة تلك المرتبطة مباشرة بالجهاز التناسلي .

وقبل الاسترسال، يجب التأكيد هنا انه لا صحة للاعتقاد أن معظم المعوقين مصابون بعجز أو غير قادرين على الإنجاب. إذ أن اختلاف موضع الإصابة في الظهر يحدد مدى شدة الضرر الذي يصيب الجهاز التناسلي ومن ثم القدرة على ممارسة الحب .

وثمة ثوابت لا يمكن تجاهلها وأنا أتطرق إلى موضوع مثل هذا ترددت كثيراً قبل الخوض فيه. فأنا لست طبيباً، ولكن يشفع لي أنني قرأت كثيراً في هذا الموضوع وخرجت بمحصلة من المعلومات عززها اطلاعي على تجارب خاصة ويمكن إيجازها في النقاط التالية:

- أن وجود إصابة في العمود الفقري لا تعني غياب الرغبة في المعاشرة الزوجية
- أن فقد الحركة لا يعني عجز الإنسان عن إمتاع الشريك والاستمتاع به
- أن غياب الإحساس لا يعني غياب الحواس
- أن غياب القدرة على المعاشرة كسابق عهدها لا يعني غياب الرغبة لممارسة الحب

العلاقة بين الرجل والمرأة وممارسة الحب في ظني هي اكثر من مجرد اتصال جسدي "عابر" يبدأ وينتهي عند حدود سرير الزوجية! ودعونا من حرفية المعنى، فعابر لا تعني طبيعة العلاقة بين شخصين وإنما هي توصيف للحدث وطريقة ممارسته حتى وان كان بين زوجين مضى على زواجهما عقود .فالمعاشرة تفاعل حسي وروحي معاً.. ولا غنى لواحد عن الآخر إلا إذا كان القصد هو إشباع الحاجة الجسدية ليس إلا!
ولقد أثبتت التجارب والأبحاث أن ممارسة الحب يمكن أن تكون حميمة أو اكثر رضى لدى المعوقين عن كونها مجرد شبق شهواني يحقق للرجل ـ وهي دائماً الحالة هنا ـ الإشباع الجسدي فقط .

وتظهر الإحصائيات أن المعوَقين بإصابات العمود الفقري يمكنهم الاستمتاع بالمعاشرة وحياة زوجية مرضية. هذه الحميمة والمتعة تتطلب، على كل حال، حواراً صريحاً يفتح أمام الزوجين إمكانيات تتيح لكل واحد منهما اكتشاف مواضع بكر لم تجرب في عجالة أسلوب "الكر والفر" الذي يعتمده الكثير من الرجال!

ويعترف كثير من المعوقين حركياً انهم تمكنوا من العثور على مكامن المتعة من خلال استكشاف مناطق أخرى جديدة في أجسادهم وأجساد شركائهم ..مناطق كانت مجهولة ـ أو قل مهجورة سابقاً !

إذا كان المصاب في العمود الفقري لا يشعر بأيَ إحساس اسفل منطقة الإصابة، فكيف يستطيع الاستمتاع بأحاسيس ممارسة الحب؟

سؤال يتردد كثيراً بين الناس.. بعضهم بدافع الفضول وآخرون بدافع" العلم بالشيء". والجواب هو أن الإحساس جزء، لكنه ليس الجزء الوحيد، في عملية الاتصال وممارسة الحب وان كان هو العنصر الحاسم للإشباع! لكن جسم الإنسان يزخر بأجزاء أخرى ـ تلك التي تعلو مستوى الإصابة في الظهر ـ يستطيع الطرفان تسخيرها للاستمتاع بأحاسيس المعاشرة الكاملة. أن استخدام هذه الأجزاء بمساعدة اكبر جزء مسئول عن أحداث هذه الإثارة ـ أعني الدماغ ـ كفيل بإثراء ممارسة الحب والوصول بها إلى درجة تشبع الطرفين!

لا شك أن رغبة الإنسان واحتياجاته لممارسة الحب بحميمة لا تختلف بعد الإصابة عما كانت عليه قبلها، لكنها تحتاج الآن لبعض التخطيط ولم تعد ممكنة بشكل عفوي كما كان الحال.

وعلى المستوى الاجتماعي فان منظر الشخص وهو على الكرسي المتحرك ليس بالتأكيد جذاباً ولا يعطي انطباع الإعجاب الذي عادة ما يخلق الالفة بين اثنين يرى كل واحد منهما في الآخر شريكا محتملا للزواج وممارسة الحب، لذلك يواجه المعوقون صعوبة في إيجاد الشريكة/الشريك التي سترضى به .وإذا كانت عادات مجتمعاتنا العربية لا تقر التعارف قبل الزواج إلا أنها تقره بقصد الزواج، وبالتالي فإن الحديث عن هذا الموضوع لا يجب أن يعد تجاوزاً للأعراف الاجتماعية والقيم الدينية. وبالتالي فان برامج توعية المجتمع بحقوق المعوقين لا بد أن تشتمل على موضوع زواج المعوقين الذين يملكون مقومات الحياة الزوجية .

وهذه حالة إنسانية ودروسها تستفاد وتطوع لتناسب خصائص المجتمعات المختلفة والمتباينة في ثقافاتها وديانـاتها وتعاطيها مع هذا الموضوع "الحساس."

ولعل المفاهيم المقولبة حول عجز المعوقين عن العناية بالأطفال وتربيتهم التربية الحسنة على غرار أي أبوين صالحين ساهمت في تردد المجتمع بشأن فكرة زواج المعوَقين. بيد أن الأبحاث والدراسات الاجتماعية، وقبل هذا وذلك التجارب الحياتية لكثير من المعاقين، أثبتت أن "الإصابة في العمود الفقري" لا تحول دون الإنجاب أو اكتساب المهارات الأبوية للاعتناء بالطفل وتربيته. صحيح أن بعض المعوقين قد تحول شدة إصابتهم دون حمل الطفل والعناية به جسديا كإطعامه وتغسيله، لكن ذلك يمكن التغلب عليه، خاصة في المجتمعات العربية، من خلال مساعدة الأهل والأقارب .

موضوع ممارسة الحب والزواج والإنجاب طويل ومتشعب ولا يمكن الحديث عنه بعجالة متحفظة. واعتذر هنا عن الاستطراد لأن غايتي من هذا النص ليس وضع دليل يرشد من هم في وضعي على تجاوز معوقات الإعاقة، وأنا لست مؤهلا للتصدي لهذا الموضوع وممارسة ذلك الدور. وآمل أن تكون أقسام إصابات العمود الفقري في المستشفيات قادرة على تقديم الاستشارات الطبية المناسبة التي تعنى بشئون المعوقين !

وكما يقال الشيء بالشي يذكر. فقد تعرفت في المرة الأخيرة التي سافرت فيها للعلاج من مشكلة صحية ترتبط بالجهاز البولي على شاب من دولة خليجية اسمه مظفر لم يتجاوز الثلاثين من عمره، وهو متزوج ولديه خمسة من الأولاد. وينحدر هذا الشاب من قبيلة بدوية تحظى في بلاده بنفوذ قوي على المستويين الرسمي والشعبي، ويتولى إدارة عمل أسرته الذي يتنوع ما بين تربية الجمال والمراكز التجارية.

الغاية من المدخل السابق هو أن أبين أن حياة مظفر كانت مليئة بالنشاط الأسرى والاجتماعي والتجاري، وفجأة وجد نفسه معوقاً غير قادر على دفع كرسيه المتحرك.

عندما وصل مظفر إلى المستشفى رفض أن يخرج من حجرته أو أن يجلس على الكرسي المتحرك، فهو، كما سمعت من الممرضات، يظن أن إصابته ليست بالغة وانه سيعود قريباً يمشي على رجليه! ومن ثم فهو ليس بحاجة للكرسي .

رفض مظفر لم يقتصر على الكرسي المتحرك وحسب وإنما شمل كل شيء له علاقة بالشلل والإعاقة ومنها العلاج الطبيعي .

كان هم مظفر الأساسي هو أن يستعيد عافيته "الذكورية" أولاً. وبعد فترة تخللتها محاولات إقناع من طبيبه ووعد ببذل قصارى جهده للتركيز على ذلك الجانب بالذات، وذلك مرهون بتعاونه مع أخصائيي العلاج الطبيعي إذا كان حقاً يريد الشفاء السريع، جاء مظفر إلى قاعة العلاج الطبيعي بعد محاولات أخرى مضنية لإقناعه باستخدام الكرسي المتحرك!

في صالة العلاج الطبيعي لم يكن التعامل مع مظفر بالأمر الهين، فهو غير مقتنع أن إصابته تشبه إصابات المرضى الآخرين، ويبدو أن ثمة من أقنعه قبل أن يأتي إلى هذا المستشفى أن حالته بسيطة وقابلة للشفاء!

برامج العلاج الطبيعي تتضمن توقيف المريض على طاولة بشد رجليه وجزء من نصف العلوي بالسيور والأربطة بطريقة تبدو لمن يراها من بعيد مهينة لكرامة الرجل.. خاصة إذا كان بدوياً كمظفر! والغاية من هذا النوع من جلسات العلاج هو تنشيط الدورة الدموية في الأجزاء المشلولة من الجسم وتقوية العظام .

كانت أخصائية العلاج الطبيعي التي تولت علاجه شابة مجتهدة ومخلصة في عملها، وكانت تجد في المرضى الصعبين من نوع مظفر تحدياً، لكن الأمر اختلف معه!
فقد استعصى إقناع مظفر بالوقوف على الطاولة، وبعد اخذ ورد أصر على انه لن يقف على الطاولة إلا إذا قدم له سبب مقنع يستحق التنازل عن بعض من كرامته. اقترحت على أخصائية العلاج الطبيعي أن تذكر له أن الوقوف يفيد، إلى جانب ما ذكرته سابقاً، في تسريع استعادة نشاطه الذكوري.. لعل وعسى!

وبالفعل حدث ما توقعته! فقد وافق مظفر على الوقوف، ليس ذلك وحسب، بل واظب على جلسات العلاج الطبيعي بحماس أثار دهشة الجميع.

موقف آخر ظريف مع مظفر: كنا جالسين في أحد ممرات المستشفى، وأخذنا الحديث إلى أمور خاصة منها هاجس مظفر الأساسي. فسألته مازحا إذا أعطي الخيار بين أن يظل طوال حياته معوقاً على الكرسي المتحرك ولكنه يتمتع بصلاحية ذكورية كاملة أو أن يستعيد صحته كما كانت قبل الحادثة ولكنها منقوصة تلك الصلاحية؟

لم أرى في حياتي إنسانا يقف حائرا بين خيارين. فقد ظل مظفر صامتا يفكر في الأمر ويقلب خياراته حتى ظهر أخوه سعفان من زاوية الممر. فصرخ مستغيثاً لمساعدته في تحديد أي الخيارين افضل!

العمل - كيف يتحول مهندس فجأة إلى مترجم!

لم يكن من السهل بعد عودتي للشركة العمل في وظيفة لم تخطر لي على بال. فكيف يتحول مهندسي صناعي فجأة إلي مترجم؟ وكيف تتحول أدوات العمل وبيئته من أجهزة الحفر ومحطات تجميع إنتاج النفط إلي طاولة وآلة كاتبة وقلم وممحاة وقاموس؟ هذا في جانب، والقدرة على استخدام تلك الأدوات في جانب آخر .

ولان ما تقوم به اليد من نشاطات يعتمد كلياً على الإبهام وإصبع السبابة، فقد كانت القدرات البسيطة مثل: مسك القلم أو الملعقة أمراً لا اقدر عليه؛ وأصبح تصفح كتاب أو مجلة مهمة مستحيلة تحتاج لمساعدة الآخرين، فالإصابة سلبت منى ابسط القدرات الجسدية . وأمام هذه التحديات ومثلها كان عليّ أن أجد وسائل أو "اخترع" أدوات مناسبة استطيع بواسطتها إنجاز عملي وتحقيق قدر ولو ضئيل من الاستقلالية.

ويبدو أن خلفيتي الهندسية وجدت لنفسها استخداما في سعي الدائم من اجل "صنع" ما يمكن أن يسهل متطلباتي اليومية.. وهي ضرورة فرضتها في البداية الحاجة ثم أصبحت فيما بعد أشبه بالهواية.

في بداية التحاقي بالوظيفة الجديدة كان زملائي في العمل سواء من يراجع الترجمة أو يطبعها يجدون صعوبة بالغة ويمضون وقتا طويلاً في تفسير طلاسم خط يدي، بعد أن صنعت لنفسي جهاز (وسيلة) متعدد الأغراض: سير من الجلد له جيب يمكنني فيه إدخال قلم، ملعقة، سكين، أو فرشاة الأسنان وسواها من الأدوات؛ ويثبت حول عرض الكف بمشبك "فلكرو". وقد ثابرت باستخدام هذه الأداة طويلا لتحسين خطي نوعاً وسرعة حتى بلغت مستوى قريباً من السرعة والشكل الذي كان عليه قبل الحادث.

دخول أجهزة الحاسوب الشخصي فيما بعد خلق تحولاً نوعياً كبيراً في طريقة أدائي للعمل أولاً واثراء حياتي اليومية ثانياً: فمن خلال استخدام أدوات الحاسوب استطعت جمع وتخزين البيانات سواء تلك المتعلقة بطبيعة عملي أو غيرها في أقراص مرنة استطيع الوصول إليها بضغط زر والتي اغنتني عن مهمة البحث اليدوي) الذي لا أستطيع إنجازه) في المراجع والملفات والأوراق ودفاتر الملاحظات. وتمكنت بفضل استخدام برامج معالجة الكلمات من تحسين أدائي للعمل نوعاً وكماً، بالإضافة إلى أن إمكانية استخدام أدوات إدخال البيانات إلى الحاسوب (ماوس، لوحة المفاتيح، ماسحة ضوئية) أتاح لي القدرة على تشغيل برامج التخطيط الهندسي والرسم بالألوان: هواية ظننت أنني لن أتمكن من الاستمتاع بها مرة أخرى!

وقد وفر الحاسوب لي الحرية للعمل بكفاءة ومرونة معقولة، والاهم انه منحني الفرصة للعمل على قدم المساواة مع زملائي في الشركة. ويشكل طرح برامج "التعرف على الصوت" إضافة كبيرة تجاه استفادة المعوقين من تكنولوجيا المعلومات، فهذه البرامج سوف تجعل استخدام الحاسوب سهلا للغاية حيث لا يتطلب تشغيل الجهاز غير إعطاء الأوامر وإملاء معطيات التدخيل من خلال الصوت فقط.. مما يجنب المستخدم عناء الطباعة حيث يمكن تشغيل سطح المكتب والبريد الإلكتروني وكتابة الوثائق بالإملاء الصوتي بدلاً من استخدام لوحة المفاتيح!

واصبح الحاسوب بعد ظهور شبكة المعلومات العالمية المعروفة اختصاراً بـ"ويب" أو الإنترنت مصدرا غنياً ورخيصاً وسهلاً للحصول على أية معلومات يطلبها الإنسان. ليس ذلك وحسب،

وإنما فتح الحاسوب قنوات اتصال مع العالم الخارجي والحوار مع الناس وقراءة الأخبار من أية وسيلة إعلامية وطلب كل ما يريده المستخدم دون أن يتحرك من مكانه. وإذ ذاك يبدو أن الحاسوب سيساهم مساهمة فعالة في إزالة الحواجز التي تحول دون استمتاع المعوقين بكثير من المرافق والإمكانيات التي كانت تتطلب منهم الذهاب شخصياً للحصول عليها: مكتبات، صيدليات، طلب معدات، جرائد ومجلات، والاطلاع على احدث الأجهزة والمعدات المخصصة للمعوقين بضغط زر ليس اكثر.

السيارة

ها أنا ذا امتلك القدرة مرة ثانية بعد أن فقدتها على التحرك.. إلى الأمام أو الخلف.. إلى اليمين أو اليسار. اقف متى شئت واتحرك متى أشاء!

بعد ثلاث سنوات من وقوع الحادث ذهبت إلى أمريكا لتلقي مزيدٍ من التأهيل والنظر في إمكانية أجراء عملية جراحية في يدي اليسرى لتثبيت وضع الأصابع بحيث يتسنى لي مسك القلم والأدوات الأخرى دون الاستعانة بأجهزة تعويضية. واثر فحص شامل للأعصاب التي لم تتضرر في يدي قرر الأطباء أن العملية لن تحقق أية إضافة حركية إليها!

لكن لم ارجع من الولايات المتحدة خالي الوفاض، فقد اقترح عليّ الطبيب تعلم قيادة السيارة. وهذا ما لم احلم به قط! تصور إنساناً انعدمت الحركة في رجليه ويديه تماماً يقود سيارة !

في الجلسة الأولى لتعلم السياقة ـ باستخدام مقبض خاص ركب على عجلة القيادة لتثبيت كف اليد اليمنى بالعرض وآخر على جانب العجلة من جهة اليسار تستخدم فيه راحة اليد الأخرى لتشغيل الفرامل ودواسة البترول ـ طارت الرهبة وتبخر الخوف وذهلت من سهولة القيادة باستخدام ذلك الجهاز البسيط. لا أظن أن ثمة من يستطيع تخيل ذلك الشعور الذي طغى عليّ. فها أنا ذا امتلك القدرة مرة ثانية بعد أن فقدتها على التحرك بأي اتجاه أريد.. إلى الأمام أو الخلف.. إلى اليمين أو اليسار. اقف متى شئت واتحرك متى شئت. كان التأثير الذي أوقعه اقتراح الطبيب والتفكير أنني سأعاود القيادة مرة ثانية رهيباً.. لا يوصف، فما بالك أن أجد نفسي فجأة على كرسي السيارة خلف عجلة القيادة.

لم "تسعني الدنيا" في تلك اللحظات ولم أطق للوقت صبراً !وما كنت قادرأعلى الانتظار حتى ينتهي الدرس الأول، فطلبت من المدرب السماح لي بالعودة إلى مركز التدريب لكي ترى زوجتي ما حدث. واظن أن شعورها وهي تشاهدني خلف مقود السيارة كان اقرب ما يكون إلى ذلك الإحساس الذي طغى عليّ في تلك اللحظات .وكانت فرحتنا ـ أنا وهي ـ لا توصف. لم اكتف بذلك وطلبت من المدرب أن نصطحبها معنا في السيارة. تردد أولاً لان نظام المركز لا يسمح بذلك.. وهم محقون! ولكنه استجاب تحت ضغط ابتسامة شاهدها على وجه فاطمة أجبرته على الموافقة ـ ابتسامة اجزم انه لم ير مثلها على وجه أحد من قبل!

مضت سنوات كثيرة على ذلك اليوم لكن ذلك الإحساس الطاغي لا يزال راسخاً في ذاكرتي بتفاصيل المشهد المثيرة، واكثرها وضوحا الفرحة التي أدخلتها على نفس زوجتي بعد أن اعتقدت انه لم يعد لدي ما يدخل البهجة إلى نفسها.

بعد عودتنا إلى عمان حصلت على سيارة مناسبة وبعد تركيب جهاز القيادة أخذت أتدرب عليها في أماكن بعيدة عن الشوارع العامة والمناطق السكنية، وذلك استعداداً للفحص للحصول على رخصة السياقة. وبالفعل حصلت عليها وفي المحاولة الأولى.

أضافت السيارة إلى حياتينا روحاً جديدة ومتعاً رائعة، وأعطت حياتنا قدراً من الاستقلال وأصبحنا نخرج متى شئنا والى أي مكان نريد وأخذت أزاول هواية قديمة ـ وربما غريبة ـ ألا وهي القيادة في الزحمة! هل سمعتم بأحد يتمتع بقيادة السيارة في الشوارع المزدحمة بالناس

والسيارات والمركبات! وان كان ثمة مكان يوفر تلك "الإثارة" فان شارع "روي" دون شك هو الأفضل من بينها .

لم تقتصر قيادتي للسيارة على المدينة وحسب وإنما أغنتنا أيضا عن الاعتماد على الآخرين في تنقلنا بين مسقط وصور والإمارات.. ولم تكن ثمة أية مشقة في ذلك. وخلال السنوات العشر التي قضيتها أقود السيارة بنفسي والى أي مكان نشاء لم أتعرض لحادث ولو كان بسيطاً!

التبعات الصحية للإعاقة

يتعذر الشعور بضغط وزن الجسم على الأجزاء العظمية في الأعضاء المصابة بالشلل أو وجود أجسام صلبة وحادة أسفله، لذلك يتمزق الجلد والخلايا في مناطق الضغط هذه!

ثمة مضاعفات وأمراض تترتب على إصابات النخاع الشوكي .وكلما ارتفعت الإصابة نحو العنق ازدادت هذه التبعات حدة (وإصابتي من هذا النوع (ولعل أهمها: القروح السريرية، الآلام والإجهاد، مشاكل الجهاز البولي، التهاب جذور الأعصاب، الإمساك الشديد، الجلطة الدماغية بسبب تهيج في الجهاز العصبي مما يسفر عنه ضغط على بعض شرايين الرأس، وتكلس العظام (هشاشة العظام). ويؤدي تدني استخدام العظام إلى النشاف وتصلب المفاصل وتعتبر حرارة الجو في منطقة الجزيرة العربية من الأسباب التي تسفر عن تدني الأوضاع الصحية للمعوقين.

ولقد عانيت في السنوات الأولى من بعض هذه المشاكل الصحية، منها القروح السريرية (المعروفة أيضا بقروح الضغط :(تمزق يصيب الجلد والخلايا أسفله نتيجة الضغط المستمر وضعف الدورة الدموية في الأجزاء المشلولة.

يقوم الجلد بمهمة تشبه مهمة الدرع لصد كافة أشكال الكيميائيات والعناصر العضوية مثل البكتيريا والأوساخ والمواد الغريبة، كما أن الشعيرات الحسية الجلدية تتولى أخطار الدماغ في حالات ظهور من قد يضر بالجلد والخلايا أسفله. وفي حالة إصابات النخاع فان هذه المجسات تفقد خط الاتصال لاشعار الدماغ بما يجري على سطح الأعضاء المشلولة .

ولأنه يتعذر الشعور بضغط وزن الجسم على الأجزاء العظمية في الأعضاء المصابة بالشلل أو وجود أجسام صلبة وحادة أسفله، يتمزق الجلد والخلايا في مناطق الضغط هذه. كما أن الضغط العالي في المناطق العظمية مثل نهاية العمود الفقري وجوانب الحوض ولوز القدمين هو سبب رئيسي لظهور القروح، ويمكن تحاشي هذه المشكلة بتخفيف الضغط على هذه المناطق والسماح للدم بالوصول إليها.

وهناك سلسلة من الإجراءات التي يتعين اتباعها لتفادي ظهور القروح أو معالجتها في حالة ظهورها.. تتراوح ما بين نوع الغذاء وتخفيف الوزن و تحاشي الضغط النفسي وممارسة الرياضة والتوقف عن التدخين إلى عمليات جراحية لرقع الجلد المتضرر.

وبالنسبة لي بدأت تظهر عليّ القروح نتيجة النوم المتواصل لفترة طويلة على جانب واحد وعلى فراشي إسفنجي عادي على جانبي منطقة الحوض بدأت على شكل احمرار ثم تمزق سطحي في الجلد الذي سرعان ما تحول إلى فتق. وباستخدام قطع إسفنجية مثقوبة استطعت التخلص من تلك القروح بعد طول معاناة حدت من أنشطتي اليومية .ولكي لا تتكرر المشكلة كان لا بد من العثور على فراش مناسب حصلت عليه بعد بحث طال اشهر!

ويشكل التشنج معضلة أخرى في قائمة التبعات الصحية لإصابة العمود الفقري، وهي حالة تنشأ نتيجة انفصال خلايا الجهاز العصبي الشوكي عن الدماغ حيث تطور هذه الخلايا بالتدريج أنشطة مبالغة بسبب زيادة الفعل اللاإرادي، فمجرد ملامسة بسيطة للجسم يمكن أن تسبب تشنجاً لا إرادياً لا يستطيع المصاب السيطرة عليه. ومع ذلك فان لها وجهاً إيجابي حيث تقوم بدور جهاز

إنذار يحذر من آلام ومشاكل في الأجزاء المشلولة، وتساعد على إبقاء العضلات والمفاصل مرنة، كما أنها تعمل على زيادة الدورة الدموية في هذه الأجزاء. وتمثل سلبياتها في عدم انتظام النوم، وتعيق القيادة، والمعاشرة وخلافها من أنشطة.

أما آلام الجذور فهي تهيج يصيب جذور الخلايا الحسية المتضررة وتسبب آلاماً مستديمة لا تنفع معها أدوية تخفيف الآلام ويقف الطب عاجزاً عن إيجاد حلول لها .

وكانت مشاكل الجهاز البولي اخطر الأمراض التي ترتبت على إصاباتي. فبعد أربع سنوات من وقوع الحادثة بدأت أعاني من آلام اسفل الظهر مع ظهور دم في البول وتبين بعد الفحص أن تهيج المثانة يسبب ضغطاً عاليا يدفع البول إلى الكلى عبر الحالبين مما يسبب انتفاخاً فيهما قد يؤدي إذا لم تتخذ الإجراءات الطبية المناسبة إلى فشل كلوي. ومنذ ذلك الوقت أصبحت القسطرة البولية عدواً لا غنى عنه. فمن ناحية هي افضل الحلول لمنع تجمع البول في المثانة أو ارتداده، ولكنها في ذات الوقت سبباً رئيسياً في الإصابة بالتهابات مزمنة

ويمثل إلتواء العظام نتيجة ضعف العضلات التي كانت تخفف من ضغط الجسم على العظام تبعة صحية أخرى للمصابين بإعاقة العمود الفقري. وأمام هذه القائمة الطويلة من مشاكل إصابات العمود الفقري قد يسأل المرء متى تصبح هذه المشاكل في حالة تحتاج إلى متابعة طبية؟

والجواب هو انه عندما يتحول التشنج العصبي من مجرد حالة عرضية إلى مشكلة تحد من الحياة اليومية، وتصبح التهابات البول والامساك الشديد اكثر من مجرد أعراض مقبولة في المصاب بعطل في العمود الفقري، وعندما يتوقف الألم والإجهاد عن كونه حقيقة من حقائق الحياة واصبح يؤثر على النشاط اليومي، فان الحالة حينئذ تستدعي عناية طبية، لكن وكما يقول المثل العربي "الوقاية خير من العلاج" فان مراجعة الطبيب بشكل دوري لا يتجاوز العام هو الإجراء الأفضل قبل أن تستفحل أية مضاعفة خاصة لدى كبار السن من المعوقين.

مذاق الصبر - الجزء الثاني - الريحان والدخان

- توطئة
- عوض: عبق الطفولة
- وطني الأكبر
- عبق لا يزول من الذاكرة
- الوجه الآخر للشمس
- الشعلة التي أضاءت الصحراء!
- المدينة
- الريحان والدخان
- البرزة
- تجليات الجنون
- الشمروخ
- ود مطر
- الحرف والعصا
- التوفة والمقراع
- دمعة
- سوق المسباخ
- سكة البنايين
- صور
- كلمة أخيرة

المكتبة الالكترونية

أطفال الخليج ذوي الاحتياجات الخاصة

www.gulfkids.com

توطئة - الجزء الثاني

تشكل ذكريات الماضي استراحة ألوذ إليها كلما انتهك الألم حاضري. حضور هذه الذكريات يكون في جله قويا، فيدفعني الى احضان زمن كانت تطغى عليه البراءة وتسوده راحة البال في محاولة ملتبسة لاستدعاء ما اختزنته ذاكرتي وما ذكره لي بعض اهلي .

وحياتي قبل الحادثة، على قصرها، كانت ـ حسب ظني ـ زاخرة بتفاعل بيئات اجتماعية مختلفة وتنوع ثقافي وتباين مدني (من المدنية) على غرار ما جربه معظم شباب تلك المرحلة. وهي حياة عشتها: احببتها أو كرهتها.. كثيراً او قليلاً، بكل ما اتيح لي.. حياة اكتسبت فيها كما بدا لي تجارب غنية على كافة اصعدتها .

ورغم التباين الشديد بين بعض هذه التجارب الا انه يمكن القول إنني ـ كسواي من شباب تلك الفترة ـ استطعت التفاعل مع انماط مجتمعات كانت خصائصها مغايرة لمجتمعنا .

بدأت حياتي من قرية نائية صغيرة قابعة وسط بحار من الكثبان الرملية على التخوم الشرقية لصحراء الربع الخالي الرهيبة، حيث تعتمد حياة اهلها على رعي المواشي وتربية الجمال؛ الى مدينة ساحلية تدور حياة سكانها حول صيد السمك وصناعة السفن والابحار في المحيطات؛ ومن هناك الى بلد يختلف فيه اسلوب الحياة، والثقافة، والقيم، ومجموعة النظم الاجتماعية عمَا نشأت عليه في وطني، حيث يشغل تفكير سكانه حرب النجوم، السفن الفضائية، وشرائح الحاسوب.. بلد يطغى على وقت فراغ سكانه البحث عن اجابة لسر مقتل بطل المسلسل التلفزيوني "دلاس" وبين المكانيين ـ الاول والاخير ـ مناطق اخرى ثرية بالتجارب والممارسات الحياتية!

لاشك ان بث الروح في الماضي يحول المكان والناس إلى كلمات، وغني عن القول ان الكلمات مهما كان صدقها ودقتها لا تكفي للتعبير عن نبض حياة ربما حبلت بمواقف "دراماتيكية" وان بدت في بعض وجوهها عادية! ولعل مردَ الخلل هنا ـ ان وجد ـ يعود إلى وهن الذاكرة على استحضارها وضعف الاسلوب في عرضها.

بيد التصدي لمهمة كهذه دون امتلاك الادوات المناسبة لتحقيقها في افضل صورها مغامرة غير محسوبة النتائج، واذ ذاك، كان لا بد من استعارة بعض أدوات الكتابة الادبية (وانا لست منهم تماما) بغية استحضار نزر من روح بشر عشت بينهم، ومعالم اماكن قضيت فيها سنوات من حياتي من خلال سيرة صبي عاش في تلك الامكنة ومع اولئك الناس .

وهنا يفرض السؤال نفسه! هل عناصر هذه "التوليفة :"الحيز، الحدث، والانسان واقعية ام انها تعرضت لغربلة وتنقيح حسب هوى "المؤلف"؟ وهل لعب الخيال دورا في اعادة صياغة خصائص الامكنة وطبائع الناس لكي يستوفي السرد شروط القبول الأدبي ولو كان على حساب الحقيقة؟

من العبث وانا اثير هذه الاسئلة أن ادعي واقعية النص التالي بالكامل، فلا احد يستطيع ان ينقل تفاصيل احداث وقعت ووجوه عاشت قبل اكثر من ثلاثة عقود دون ان تتعرض لبعض التغيير، وليس بوسعي الادعاء انها كانت من القوة والتأثير بحيث ترسخت بتفاصيلها الدقيقة طوال هذه السنين.. خاصة ان أداة استعادتها تعتمد على لا شيء سوى الذاكرة، والذاكرة قيل انها تخون !

بيد انه يمكن التأكيد اني كنت مخلصاً للحقيقة من خلال روحية التناول وكان الرسم ـ بحكم آخرين ـ قد لامس الاصل الى درجة أتاح لبعض من عاش تلك الفترة التعرف، من خلال الاطار العام لمكونات التوليفة، على مكان ما وفلان ما! وهذا يكفي للادعاء ان "النص" فيه من الواقع ما يمكن ارجاعه الى تاريخ محدد وحيز معلوم وملامح وجوه معروفة.

عوض

تذكر امه انه جاء إلى الدنيا دون توقع وقبل حينه بأسابيع. ففي صباح يوم صيفي قائظ في عام من الربع الثاني من الخمسينيات، فتح عينيه على غمامة حزن أطبقت على الناس والمكان ..

وبين أصوات النحيب والعويل، حزناً على وفاة آخ له لم يكمل عامه الخامس، ضاع صراخ ولادته، وكان ظهوره المفاجئ في وقت غير مناسب سبباً في تكوين شعور متناقض بين الحزن والفرح .

وكأن حرمانه من الصرخة التي ينتظرها الأقارب أمام حجرة الوالدة إعلانا بانتهاء مكابدة آلام المخاض وقدوم روح جديدة إلى الدنيا.. لا يكفي، فقد أطلق عليه اسم "عوض" وهو عرف عند بعض البدو عندما يولد لهم أطفال مباشرة بعد وفاة آخر في الآسرة .

وزيادة في الحرص ثقبت أذنه اليسرى لوضع حلق فضي لإبعاد الأرواح الشريرة ـ رغم ان امه قالت له فيما بعد ان ذلك دليل على خصوصية ولادته. وهو ما شكل في شبابه ـ حسب مواقف الناس وتباين الأماكن ـ إما إحراجا لتشبهه بالفتيات، أو ميزة تفرد بها بين زملائه في الجامعة .

بيد ان الاستقبال الفاتر الذي قوبل به لم يلازمه طويلاً، فقد ولدت امه بعده بنتين وظل الصبي يتمتع بمزايا الذكر الوحيد ـ لفترة طولية قادمة ـ بين ثلاث أخوات في مجتمع بدوي يفرد للذكر مكانة أرفع خاصة إذا كان الأكبر من بينهم.

وعندما سمح له الانفصال عن دائرة الأسرة، شعر برغبة ملحة في "المغامرة".. أخذت الأصوات والصور تثير مخيلته وتصحوا فيه اهتمامات غريزية لاستكشاف "العالم" الغامض خارج محيط بيته :عالم الأشياء والناس.. عالم امتلأ خياله بصدى أصواته وكانت رمسة العرق تجربة أولية مثيرة لا تزال عالقة بالذهن!

فعلى سفح كثبان رمل ناصع البياض، يجتمع الصبيان والبنات ـ على حد سواء ـ للغناء ونظم الشعر والرقص ولعبة الساري على ضوء القمر .وهناك يصدح صوت سليّم مغاني، شاعر الوادي ومغنيه، وهو ينظم الشعر حماسياً يصف فيه قوة القبيلة وشجاعة رجالها؛ أو غزليا يمدح الجميلات من النساء ويشيد بشرفهن؛ أو حزناً على ميت؛ أو فرحا في عيد أو عرسا أو ختاناً ـ وكل ذلك حسب ما يناسب المزاج السائد في الوادي حينه! وعلى قرع الطبل ترقص الفتيات ويشاركهن الصبيان في حركات تعبيرية تعكس حياة الناس وأساليب عيشتهم ومعاناتهم دون ابتذال، وليس في رقصهم ما يخل بالشرف أو يدعو لنقيصة .

ويتذكر تجمع النساء والأطفال مع معلمة القرآن شمسة لسماع الخراريف والقصص والأساطير التي تغرس في نفوس الأطفال الأخلاق النبيلة والسلوك السوي وتحلق بخيالهم إلى أماكن وبيئات لم يألفوها، وتشكل في الذاكرة مدارك ومفاهيم تهيئ الأطفال وهم في سن مبكرة لخوض الصراع من اجل البقاء واولها الولاء للقبيلة ـ فهي طوق النجاة !

ان من أهم الوجوه والأسماء التي يتذكرها عن تلك الفترة المبكرة من صباه هو سعد الرويسي الذي أثار مجيئه إلى الوادي ـ هذه المرة ـ ضجة لم يعهدها سكانه! وكان زواجه من ابنة عمه مريّم، في العام الماضي، عرساً لم يشهد الوادي له مثيلاً! وسعد هو ابن أخ عبّاد غير ان أسرته

تقيم في قرية ساحلية وتمتهن صيد السمك. عبّاد (احد أعيان الوادي وشيخ اكبر قبائله) كان ذكر لرجال الوادي، العام الماضي، عندما تقدم ابن أخيه لخطبة ابنته ان سعد عاد من العالي وهو يعمل هناك ويتعلم في المدارس الحديثة في نفس الوقت وسوف يحصل على شهادة علم ستضمن له عملاً مرموقاً في نفس الشركة التي يعمل فيها الآن .

وجاء هذه المرة مرافقا زوجته لزيارة أهلها، وأحضر معه جهاز "راديو". أثار ظهور الراديو في الوادي ردود أفعال مختلفة بين الرفض والقبول. ولعل سعد كان أول من ادخله إلى المنطقة. وعلى غرار معظم المحدثين، واجه سعد في البدء معارضة من بعض وجوه الوادي العتيدة، وبعض التأييد المشوب بالحذر من شبابه. حمّاد الزور قال ان سعد سحر شباب الوادي بالراديو فأصبحوا لا يكترثون كثيراً للعناية بالجمال وتضمير النوق .

لكن يبدو ان سحر الراديو لم يطل الشباب من أهل الوادي فحسب، بل ان بعض رجال الوادي اخذوا يترددون على بيت عبّاد للجلوس مع سعد والاستماع إلى حديثه الذي يجمع بين الثقافة والسياسة وان كان ما يشدهم اكثر هو جهاز الراديو الذي احضره الرويسي معه من العالي. والجمهور لم يقتصر فقط على الرجال، فالفتيات أيضا كن يجتمعن خلف سياج البيت بدعوة من مريّم زوجة سعد للاستماع إلى الأغاني!

حادث عرضي قلب الرفض إلى قبول للراديو، وكانت بطلته معلمة القرآن شمسة. فقد كانت مدعوة على الغداء، يوم الجمعة، في بيت عبّاد.. وهي عادة جرى عليها أهل الوادي لاستضافة المعلمة التي تعيش بمفردها، وليس معها من يخدمها ويلبي طلباتها، وان اقتصرت احتياجاتها المعيشية على خيمة تدرأ عنها برودة الشتاء ولسع الرمل إذا اشتدت رياح الكوس، وبقرة قدمها بن غباش هدية لها عندما ختم ابنه القرآن تشرب من حليبها وتصنع منه الجبن واللبن. وهي عطية لا يكف بن غباش عن ذكرها كلما سنحت له الفرصة!

واثناء وجودها هناك استمعت المعلمة في عصر ذلك اليوم إلى إذاعة كانت تنقل صلاة الجمعة، وسمعت من الإذاعة قراءة للقرآن لم تسمع بمثلها من قبل! فأخذت تردد الآيات مع المقرئ وانفعلت فانهمرت دموعها غزيرة وهي تسمع قوله تعالى "أفلا ينظر الإنسان إلى الإبل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الأرض كيف سطحت." إلى آخر الآية الكريم، ولم تتوقف طوال ما تبقى من ذلك اليوم عن ذكر آيات من القرآن الكريم.

نقل الرجال بعد صلاة المغرب ما حدث للمعلمة شمسة في ذلك اليوم في بيت عبّاد. قال حمّاد، وهو يعيد ربط جديلته على المصر، ممتعضا:

•الظاهر ان العجوز خرفت.. وآلا ايش يخليها تسمع الراديو ومزاميره! لكن قبل ان يكمل نهره عبّاد قائلا:

•استحي على وجهك يا رجل ولا تتكلم عن الحرمة الطيبة بهذا الكلام. أنت تريد تسود وجوهنا مع المعلمة وأنت تعرف أننا ترجيناها حتى تقعد وتستمر في تعليم عيالنا!

وعندما حاول العبد الدفاع عن صديقه سعد، مذكراً الحاضرين برد فعلهم عندما شاهدوا سيارة الإنجليز من بعيد وقالوا عنها انها شيطان يمشي على أربع أرجل، لكنه لم يتمكن من مواصلة كلامه حين قاطعه حمّاد بحدة:

•ما بقى غير أنت تعلمنا ايش انسوي! فكف العبد عن الكلام وطأطأ رأسه وانسحب من المصلى قبل ان يسمع مزيداً من التقريع.

الشايب مرزوق سأل عن شكل الراديو وطلب من الحاضرين ان يشرحوا له "كيف يشتغل وايش يجيب؟" لكن لم يتلقى ردا لسؤاله، وعندما ألح على حمّاد، رد هذا الأخير بعصبية وهو يغادر المكان:

•إبليس يعرف شكله وايش يجيب!

فوق عرق الرمل، وصل العبد إلى حيث يجلس سليّم مغاني، وبصوت طغى عليه الإحساس بالإهانة، قال العبد:

•الزور لبسه عفريت اسمه "الراديو"

واصل مغاني حركة يده وهو ممسك بعصاه يرسم بطرفها المصفح بالفضة على سطح الرمل الذي سواه بيده أشكالا وخطوطاً ومنحنيات لا معنى لها في شكلها الظاهري، ولكنها حسب قوله تساعده على نظم القصائد ـ فهو شاعر القبيلة، وعلى صوته العذب يغني الوادي كله !وبصوت عال.. يريد به إخراج سليّم من حالة الشرود الذهني أو ربما التهرب عن إبداء رأي في ما يجري، قال العبد:

•ايه يا الأخ، أنت تسمعني ولا مطنش؟

رفع سليّم رأسه وعلى وجهه ابتسامة خفيفة، كمن أدرك ما صار عليه حال العبد في المصلى، قال:

•أسمعك لكن ايش تريدني اسوي؟

سليّم أدرك، بحساباته الخاصة، ان الراديو سيشكل منافساً له، فلقد كان هو نجم الوادي ومركز سهرات لياليه، فعلى ضوء القمر يتجمع الشباب والفتيات للاستماع إلى غنائه والرقص على ضربات طبله. وبقدر إعجابه بالجهاز، إلا انه توجس الخطر في ردود الفعل التي ستظهر حالما يرتفع صوت الجهاز، ففضل ان ينأى بنفسه!

انتشرت قصة المعلمة شمسة بين نساء الوادي. وسمع الناس تلك الليلة الخلاف الذي نشب بين حمّاد وزوجته نافجة، عندما أبلغته، وهي تضع الزرابيل على قدميها، انها ستذهب غدا إلى بيت عبّاد لسماع راديو نسيبه، وستأخذ معها زوجة ابنها الغائب أيضا تمادياً في التحدي .

جارتهم تعيبة، التي تهوي متابعة جولات الخلاف الصوتي بين الزوجين وتذيعها في الوادي بعد إضافة بعض الحبكات والمبالغات زيادة في التشويق، قالت انها سمعته وهو يحلف "والله سأطلقك بالثلاث إذا خالفت طوعي". وأخبرت بعض النساء ان ذلك هو الطلاق الخامس خلال هذا الشهر، وسمعتها أخريات وهي تقول انه السابع. وهي تؤكد ذلك بسجل يبين مرات الطلاق التي يرميها حمّاد على زوجته وذلك بشحطة إصبع على الرمل في ركن من خيمتها!

—

التغرود: نوع من الغناء ينشده البدو وهم على ظهور جمالهم لحثها على السير. الطارق: من أنواع الغناء .رمسة: سهرة. العرق: تله رمل. العالي: دول شمال الخليج العربي. خراريف: قصص شعبية أو أسطورية تحيكها النساء للأطفال. جديلة: حبل يجدل من صوف الماعز ويربط به المصر :عمامة. مطنش: يتجاهل الكلام. الزرابيل: حذاء ينسج من صوف الماعز ويلبس للوقائية من لسع العقارب.

وطني الأكبر

في مساء اليوم التالي تجمع أهل الوادي في بيت عبّاد.. جاءوا جميعاً للاستماع إلى الراديو، ولكن في ذهنهم شيء واحد فقط: قراءة القرآن .

جلس الضيوف، فلما طال انتظارهم ـ والبدو دائماً في عجلة من أمرهم ـ طلب الشايب مرزوق، وهو يتحسس بيديه الجهاز بحذر وكأنه يتوقع لسعة عقرب، من سعد ان يفتحه ويسمعهم ما سمعت المعلمة شمسة أمس !

أحس سعد، الذي لم يخف فرحته بحضور سكان الوادي، بورطة موقفه.

•جاك الموت يا تارك الصلاة! قالها العبد وهو يقهقه. فلم يجد افضل من هذا التعبير لوصف المأزق الذي وقع فيه صديقه. لكنه تدارك الموقف فوجه سؤلا للشايب مرزوق:

•يا عمي مرزوق ايش من الأيام هذه؟

•اليوم السبت يا معلم ود شماله. قالها احدهم مستهجنا السائل والسؤال! لم يعر العبد التعليق اهتماما وواصل يسأل:

•قل يا عمي ايش من الأيام هذه؟

•العبد مصمم عليك يا عمي مرزوق.. يا لله راوينا إذا كنت تعرف تحسب الأيام؟ قال آخر. احدث التعليق جلبة بين الناس، وسمعت النساء وهن يضحكن بأعلى أصواتهن خلف سياج البيت.

تثاقل مرزوق الرد، واجاب وهو يمسد لحيته الطويلة دلالة على السخط وعدم الرضى، وبصوت غاضب:

•اليوم السبت يا معلم العبد أمس الجمعة. قفز العبد من مكانه وصرخ:

•الله ينور عليك يا عمي أنت جبتها.. نعم البارحة كانت الجمعة والقرآن اللي سمعته المعلمة كان من صلاة الجمعة!

نفث سعد الهواء الذي حبسه في صدره وهو يتابع محاولات العبد إنقاذه من الورطة.

•ايش يعني؟ سأل الشايب، وأضاف في إشارة لحاجته لمرافق بعد ان فقد بصره :

•كل هذا الجر والسحب بلاش.. مبنسمع شيء الحين؟

وكان هذا ايضاً تساؤل كل من حضر، فطمأنهم سعد ان الراديو يذيع اخباراً ودروساً دينية احياناً وغيرها، وكاد يضيف" واغاني أيضاً "

تربع سعد في جلسته أمام المذياع واخذ يدير القرص بحثا عن محطة ترضي مستمعيه في أول يوم لهم معه! ومن "صوت الساحل" استمعوا إلى نشرة الأخبار المحلية التي أوردت في نهايتها قائمة بأسماء السفن التي وصلت أو غادرت ميناء دبي ..ومن بينها سفن بعض تجار المدن الساحلية المعروفين لديهم، فأثار ذلك استحساناً عبر عنه الشايب مرزوق، وإن استعصى عليه فهم بعض الكلمات التي وردت في الأخبار، وظل يسأل سعد طوال فترة النشرة "ايش يقول؟"، بعدة ردود أفعال مثل، "الله واكبر.. ايش هذا الشيء يلقط أخبار الدنيا كلها "!

في صباح اليوم التالي شاهدت الحطابات سالومي "المعتوه" وهو يضع رأسه داخل عبوة صفيح فارغة وامسك بيديه طرفي جذر راك ناعم بعد ان ادخله في ثقب بالعلبة واخذ يسحبه يميناً وشمالاً لإصدار صوت يشبه صوت آلة الكمنجة.. ويغني:"كنت.. كنت.. سيجارة حبيبي!" ـ الإعلان الذي كان يبث كثيرا حينئذ من الإذاعات العربية.

وبعد أيام أضاف سليّم مغاني آلة جديدة إلى أدواته الموسيقية التي كانت تقتصر على طبل تمزق جلده وقدر نحاس يضربه الرماسة بقطعتين من أغصان الغاف، وهي تجمع بين العود والربابة والكمنجة جمعها بمعاونة سعد، أضاف إلى غناء التغرود والطارق نوعاً آخر من الغناء تعلمه من إذاعة "صوت العرب" ويقول مطلع احدها "وطني حبيبي.. الوطن الأكبر."

أما العبد فقد أطلق اسم "الصوت" على خوار ناقته، أملا ان تكسب عندما تكبر صفة السرعة التي كانت تشتهر بها الإذاعة في نقل أخبار العالم. وفعلاً.. لم يخب ظنه، فقد أصبحت الصوت مضرب الأمثال في المنطقة لسرعة عدوها في السباقات، ثم اشتهرت بعد ذلك بـ "ولادة الاصائل" حيث أنجبت عدداً من نوق السباق السريعة. وقيل ان العبد "اغتنى" نظرا للطلب والتنافس احياناً على شراء بنات "الصوت" ـ وهو الاسم الذي اصبح فيما بعد علامة على أصالة النسل على غرار بنات" فرحة" وبنات "سمحة !"

العبد (أو كما يناديه بعضهم ود شماله) هو أيضا غريب على الوادي، ولا تمت أسرته لاحد من سكان الوادي بصلة. وقصته ـ كما رواها خال الصبي ـ هي ان شمالة (والدة العبد) جاءت إلى الوادي قبل سنوات عديدة وهي تجر خلفها ناقة جرباء حملت على ظهرها: صبياً، وفتاة صغيرة، وبعضا من متاع؛ وقطيع ماعز لم تتجاوز رؤوسه خمسة! وخيمت الأسرة تحت ظل شجرة غاف في الطرف الغربي من الوادي .

في البدء تحفظ بعض سكان الوادي على وجود الأسرة الغريبة، قالوا: "ان امرأة بمثل وضعها لابد ان تكون وراءها قصة". ولم يكن التحفظ ضد المرأة واسرتها الصغيرة يعود لذلك السبب وحسب، وانما حذرا من مرض الناقة حتى لا تستعدي جمالهم! إلا انهم عوضوا سوء الاستقبال ـ وهذا ليس من شيمهم ـ عندما رأوا ان المرأة اكثر حرصاً على مواشيهم، فزارتها النسوة، بعضهن مرحبات وأخريات متطفلات! ودأبن على إحضار الطعام لأسرتها .

وبعد مرور وقت ليس بطويل وجدت شمالة طريقها إلى منازل الميسورين في الوادي، فاشتغلت في رعي مواشيهم ومساعدة نسائهم اوقات الأفراح والعزومات والمناسبات الأخرى التي تتطلب تحضير كميات كبيرة من الطعام .

ورغم الغموض الذي أحاط بأصل أسرتها وقصة نزولها الوادي، إلا ان بعض سكان الوادي اعتقدوا انها تنحدر من أسرة بدوية طيبة، وانعكس ذلك بوضوح في تربية ولدها الذي كان يتحلى بخلق حسن وخصال بدوية أصيلة.

وقد عمل العبد، وهو في سن مبكرة، راعياً للجمال، ثم مكادباً للقوافل ومضمراً لنوق السباق عندما اشتد عوده، وتفوق على شباب الوادي في رماية البندقية والقنص.. وهذه مهارات لا تجتمع في شخص واحد إلا فيما ندر !

وكان، ومنذ وصوله إلى الوادي منطوياً، على نفسه وشغله ـ وان لم يفرضه احد عليه ـ ولا احد يذكر انه تدخل في خلافات أهل الوادي أو خصوصيات أسره، وكان دائما يتجنب الاشتراك في النقاشات أو الجدل الذي يجري بين الشباب في أمورهم اليومية، ويتهرب حتى من مشاركتهم اللهو والتسلية.. تفادياً لشجار أو احتكاك معهم، فصوت أمه كان دائما يلاحقه "يا غريب كن أديب" حتى تعرف على سعد الرويسي!

لاحظت شماله في العام الماضي، أثناء وجود سعد في الوادي وتوطد علاقة ابنها به، التغير الذي طرأ على العبد، فهو نادرا ما كان يسمع له حَس. أما بعد ان تعرف على سعد، صار اكثر اختلاطا بشباب الوادي واقل نفوراً من تجمعاتهم.. علا صوته وهو يتحدث بينهم في مواضيع مختلفة كان بعضها في قائمة المحرمات التي وضعتها أمه. ولم يفت الام طبعا ان التحول في شخصية ولدها كان للأفضل، واذ اسعدها ذلك، لكنه زاد خشيتها عليه في آن!

عبق لا يزول من الذاكرة

ان اشد ما ترسخ في ذاكرة الصبي عن تلك الفترة المبكرة من طفولته هو احتفالات الأعراس والأعياد الدينية ومناسبات أخرى سواها مثل :الختان، والاحتفال بعودة غائب .

كان الناس يرتدون افضل ثيابهم وزينتهم وحليهم؛ فالرجال يلبسون الخناجر ويتوشحوا أحزمة الرصاص ويحملوا البنادق والسيوف، بينما تتزين النساء بأفضل حليهن من الذهب والفضة كالعوص والغلاميات والمرتشحة والمرية والحجل. ويتبرجن بأطيب المعاجين العطرية.. أكثرها استخداماً المحلب (مزيج من الزيت والزعفران والصندل والزهور الجافة والماء) كما يدهنّ شعورهن بمسحوق ورق السدر لتثبيت تسريحة تسمى العقفة ويخضبن أياديهن وارجلهن بالحنا على شكل تصاميم وأشكال جميلة تبهر النظر وتزيد الجميلات منهن جمالاً .

الاحتفال عند البدو، بدون سباق للجمال لا يعد احتفالاً! وهو لا يكتمل إذا لم تصاحبه عروض الجمال حيث يصل أصحاب النوق إلى موقع الاحتفال في فرقة واحدة منتظمة الصفوف، فيستعرضوا نوقهم خبباً على غناء التغرود حول دائرة المركاض في شكل استعراضي أخاذ، قبل ان ينزل المتسابقون ويصطفون زوجاً زوجاً لأخذ دورهم في سباق ليس هدفه التحدي أو التنافس وانما إظهار مهارات "الركبيون ."

وسوف يمضي طول من الوقت على ذلك المشهد بأصوات الغناء المرتفعة وقرع الطبول وصليل السيوف وخشخشة حلي النساء؛ ومنظر الرازحين ولمعان سيوفهم وسباق الهجن والأطفال بملابسهم الزاهية والنساء الجميلات؛ وأريج العطور الممتزجة في الهواء مع روائح الطعام النفاذة.. حدث رائع له عبق لا يزول من الذاكرة .

عندما بلغ الصبي السن المناسبة لتعلم قراءة القرآن ذهب فرحاً إلى مدرسة المعلمة شمسه. وهناك يفترش التلاميذ الرمال النظيفة وتظللهم شجرة غاف وارفة في أحضان امرأة يحرص الأطفال على الذهاب إليها قبل الصبيان والفتيات! مدرسة يتعلم فيها التلاميذ أمور الحياة اليومية إلى جانب قراءة القرآن .

ففي ساعات الضحى تكلف العجوز مجموعة من الفتيات بخض الحليب الذي يجلبه التلاميذ معهم وعمل اللبن وصنع الجبن، بينما تكلف عدداً من الصبيان بتسلق شجرة الغاف وقطف شماريخ الأوراق الرطبة .ثم يتعاون الجميع على تحضير سلطة المكيكة. وعند الانتهاء من تحضير اللبن والسلطة يتوقف الدرس ويتحلق التلاميذ حول وجبة من صنع أيديهم !

وعاش عوض اسعد أيام طفولته هناك عندما أهداه خاله جحشا صغيراً حديث الولادة أطلق عليه اسم "قبيلي ."وبعد ان صار الجحش حماراً، اصبح الصبي أول تلميذ يذهب إلى مدرسة المعلمة شمسة على ظهر دابة .

وكانت جارة الطفولة "التيه" اكثر سعادة بالحمار منه، وحين طلبت منه ان يسمح لها بركوبه! رفض أولاً بشدة ليس خوفا عليها، بل رأفة بالجحش، لكنه تراجع وضعف أمام دموعها وتوسلاتها، ووافق على طلبها مقابل ان تصنع له شربت فلبت رغبته مسرورة. استهوته الفكرة، فاصبح قبيلي متاحا للإيجار ليس مقابل نقود وانما مقابل مشروبات وأطعمة وبعض الخدمات الأخرى. وعلى غرار معظم التجار وسع الصبي مجال تجارته عندما احضر له والده دراجة

هوائية، واصبح أمام زبائنه الاختيار ما بين ظهر قبيلي ومقعد الدراجة !

وفي ظل غياب والده المستمر، تولى أقارب الصبي تربيته وتعليمه مهارات وأساليب حياة البدو. فبدأ بتدرج في مواجهة تحديات الصحراء وعالمها المحكوم بقوانين الصراع من اجل البقاء.. بيئة تتطلب اكتساب منظومة من القيم والمهارات.

ولم يكن عمره قد تجاوز الثامنة عندما رافق رعاة الجمال، فكانوا يمضون أياماً يجوبون السهول والكثبان الرملية بحثاً عن أجمة حالفها الحظ إذ ارتوت الأرض تحتها بالغيث اكثر من سواها. وكان غذاؤهم يقتصر على شربة ماء من قربة وما تجود به ناقة والده من الحليب بعد إرضاع صغيرها، وحبات تمر، وبعض ثمار النباتات الصحراوية، أو ـ وهذا نادر ـ لحم أرنب بري أو غزال تاه عن قطيعه فوقع في مرمى بندقية العبد.. حتى عودتهم إلى القرية بعد أيام عدة. وهكذا لمس وعن تجربة المعاناة والمكابدة التي تعيشها فئة من سكان الوادي، وهو أسلوب من أساليب حياة البادية.

وهناك في البادية تعلم قراءة القرآن في الهواء الطلق تحت ظل شجرة ، وتعلم رعي الماشية وغناء التغرود والطارق، وتدرب على ركوب الجمال، أتقن تصويب البندقية والضغط على الزناد. وهناك رافق البدو مع كلابهم السلوقية في رحلاتهم لصيد الأرانب والغزلان، وتعلم انه لا مجال للخوف من ضباع الصحراء وجوارحها وكيف يدافع عن أسرته ومقتنياتها.

وادي راك كان الفضاء الذي فتح فيه عينيه على صفاء السماء وخواء الأرض.. على كثبان الرمل المتحركة والسهوب القاحلة والفيافي الشاسعة .

هناك سهر على ضوء القمر ونام تحت فوانيس النجوم.. هناك تطبع بأخلاق وعادات البدو وتعلم الإخلاص للقبيلة، وعرف البادية: خصبها وجدبها.. حكاياتها وأساطيرها ..تقاليد أهلها وأساليب حياتهم .

وهناك ترعرع وبلغ مبلغ الرجال قبل أوانه، وتعلم مسؤولية الواجب وحقائق الحياة، وسكنه الشعور بذنب اقتراف خطأ عندما أصاب كلباً برصاصة طائشة تركته يجر ساقيه حتى عثر على بقاياه بعد بضعة أيام خارج القرية .وهي تجربة في مجملها كانت العنصر الأساسي الذي صاغ وجوده وشكل حياته.

وكان لابد من الرحيل! إذ قرر والده ان الوقت حان للعودة بأسرته إلى المدينة حيث يعيش أهله وأسرته الكبيرة. وكان على الصبي ان يستعد لمواجهة حياة جديدة وتحديات من نوع آخر وأساليب حياة مغايرة لا يعلم شيئا بشأنها ولم يكن له رأي في اختيارها !

—

العوص: حلية من الذهب أو الفضة تتكون من حلقه وسلسلة وخطاف. تلبسها النساء بتثبيت الحلقة في ثقب بالأنف وتثبيت الخطاف في الأذن في نهاية السلسلة التي تمتد على الوجنة بينهما.
الغلاميات: ومفردها غلامية. شكل مخروطي يصنع من الذهب أو الفضة تلبس في الأذن.
المرتشحة والمرية: نوعان من القلائد تلبس حول العنق وتتدلى الأولى إلى الصدر بينما تظل الثانية اقرب إلى الرقبة. الحجل: خلخال مجوف يصدر أصوات كلما تحركت الأقدام

الوجه الآخر للشمس

عند مصب وادي شياع على بحر العرب قرر المكاري (صاحب قافلة الجمال التي أكراها والد الصبي لنقل الأسرة من الوادي إلى المدينة) التوقف للمبيت، رغم قصر المسافة إلى المدينة، فالطريق الساحلي الممتد من هناك إلى المدينة يصعب تجاوزه ليلاً خاصة بعد هطول الأمطار، التي تطمر سيولها المنحدرة بشدة من الجبل طرق القوافل بالصخور والطمي ويصبح المرور في شعاب السيول مجازفة محفوفة بالمخاطر، فضلاً عن أن القافلة تعرضت في وقت سابق من ذلك اليوم لحادثة عندما أجفلت الناقة التي كانت تحمل الأم وطفلتها الصغيرة من أرنب بري انطلق من جحره فجأة أمامها فسقطتا من فوق ظهرها، وتولتهما العناية الإلهية بالرحمة فلم يصابا بأذى. الخسائر المادية انحصرت في تهشم جحلة الماء .

على صوت المؤذن، وان تأخر كثيراً عن موعده، فتح الصبي عينيه على زرقة لا نهاية لها. فرك عينيه ظنا أن الغمش يحجب عنه الرؤية في الغبش. ثم عاود النظر مرة ثانية، وتذكر أن والده أشار بيده ليلاً في هذا الاتجاه عندما سأله عن وجهة البحر حتى ينام مولياً وجهه نحوه .

ظل واقفاً ينظر إليه، وقال لنفسه "هذا هو البحر أذن!". كان يظن ان الصحراء فقط لا حدود لها، لكن البحر بدا اكثر اتساعاً. خطا عدة خطوات نحوه، اقترب اكثر فاكثر من هذا المجهول الذي لم يعرف عنه شيئاً سوى قطع السمك اللذيذ الذي كان يحضره رجال الوادي حين يذهبون إلى قرى ومدن الساحل .

الآن وقد خفت آثار اللقاء الأول اخذ يتذكر ما سمعه من أبيه.. وما سمعه كان كثيراً: السفن، والشراع والدقل والكنعد، ولكن لا يرى أثرا لأي منها! وهو يلتفت بحثا عن جسم يتحرك لاحظ أن الجهة اليمنى من أفق البحر اكثر نورا .أطال النظر، وظل يركز على تلك الهالة لعله يجد تفسيرا لذلك النور العظيم الذي استمر ينبعث من البحر ويزداد قوة فقوة باثاً خيوطاً فضية على صفحة البحر.

سمع صوت أمه :

•تعال يا عوض بتتريق.

انشغل بدعوة أمه قليلاً وعندما التفت إلى مكان النور في أفق البحر رأى قرصاً ذهبياً يبزغ من عرض البحر، تمعن النظر اكثر إليه، وصرخ بشكل لا إرادي "الله واكبر.. هذه الشمس تطلع من البحر". فرح كثيراً لهذا الاكتشاف! تزاحمت الأسئلة في رأسه ولم يطق لها صبراً، وعاد والسؤال يكاد يطير من فمه :

•بويه.. شمس البدو غير شمس أهل البحر؟

•شمسنا احسن. قال المكاري ضاحكاً، ثم مخاطباً والد الصبي :

•يا الله يا صالح رد على ولدك. أجاب والده :

•لا يا ولدي الشمس هي الشمس في الوادي أو هنا! وقبل ان يسأل سؤالاً آخر عاجله والده بما يشبه السؤال :

•رقص سبال. وهي وسيلة اعتاد الوالد استخدامها لإسكات ولده قبل ان يطرح سيلاً من الأسئلة في وقت غير مناسب لها، فسكت، ولكن جواب أبيه لم يشبع فضوله، فقال لنفسه:

•ليش تطلع هناك من وراء الجبل وتطلع هنا من البحر!

بعد مض سنوات على ذلك الصباح عرف الصبي انه وقف ذات صباح في الجزء الشرقي القصي من العالم العربي، ولعله كان أول صبي عربي تشرق على وجهه الشمس في ذلك اليوم، وعرف أيضا انه كان يقف على مرمى حجر من اكثر خطوط الملاحة أهمية حيث تمر فيه اكثر من نصف صادرات الطاقة في العالم .

ربطت اخطمة الجمال المحملة بالأمتعة التي لا يركبها احد بذيول بعضها البعض، وربط خطام أولها بذيل بعير المقدمة، وامتطى صالح البعير وردف خلفه ولده؛ بينما امسك المكاري بخطام ناقة الام وقاد مساعده ناقتين ركبت على الأولى منهما البنت وردفت على الأخرى البنتان الصغيرتان.

وعندما بلغت القافلة المناطق الصعبة من الطريق نزل صالح وطلب من المكاري ان يقود بعير المقدمة بينما تولى هو قيادة الناقة التي تركبها زوجته. وان كان الوالد ليس من البدو ولا يملك جمالاً الا انه بحكم زواجه من البدو ورحلاته الكثيرة بين الوادي والمدينة أتقن التعامل مع الجمال تماما كأهلها. هذا الموقف لم يقبله المكاري البدوي عن طيب خاطر، فقد سمع يقول لمساعده :

•يظن ان البوش مثل بدانه!

في غمرة التركيز على توجيه القافلة بين الصخور والتحكم في سيرها حسب ما تقتضيه انحدارات الطريق وتعرجاتها، انشغل الأب عن ولده عندما كان البعير يصعد آخر شعبة ويطل برأسه فجأة على بيوت المدينة. واذا ذاك طلب المكاري بصوت عال من الصبي ان ينهق! فعلها الصبي واحسن فعلها. وكان استعد لهذا الموقف بعد ان أخبرته أمه قبل أيام عن عادة يطلب فيها من الصبيان ان ينهقوا كالحمير عندما يدخلوا مدينة لاول مرة.

—

جحلة: اناء فخار يحفظ فيه الماء. الغمش: الجذاب من اثر النوم .الكنعد: ملك السمك. سبال: النسناس (قرد صغير طويل الذنب): وهنا يشبه الوالد عقل ولده بقرد صغير ينط داخل قفص عندما يكثر الصبي من الأسئلة والكلام الذي يعجز الكبار عنه أحيانا. البوش: الجمال. بدانه ومفردها بدن: قوارب شراعية كبيرة تستخدم في التجارة البينية على طول سواحل الجزيرة العربية.

"الشعلة التي أضاءت الصحراء"!

عشقه للبادية وحبه لاهلها لازماه طوال سنوات. وفي سنوات دراسته الجامعية لم يجد افضل ما يكتب عنه في مقرر "تاريخ العرب "من البادية وسكانها. التالي ملخص تلك الورقة التي كتبها بمتعة وحب على خلاف سائر المقررات الدراسية :

عند ذكر كلمة البادية يتبادر للذهن عادة معنى الصحراء القاحلة الشديدة القسوة، وهي، اذ ذاك، اما سهوب شاسعة جرداء او كثبان رمال متحركة ..لا تكاد ترى فيها للنبات ظلاً ولا تسمع للحياة نفساً الا ما ندر ويطبق على فيافيها الواسعة الصمت لا تقطعه الا اصوات هزيز الرياح !

ودرجت العادة ايضا على القول ان الترحال والتنقل الدائم بحثا عن الماء والكلأ هي السمات الرئيسية المميزة لسكانها الذين يسمون البدو الرحل .

ولعل الانطباع السابق عن الصحراء التي شكلت اصعب التحديات على الانسان من أي منطقة اخرى على وجه الارض، لا تجافيه الحقيقة الا في اقتصار التسمية "البدو" على اولئك الناس الذين قال عنهم مستكشف اوروبي" الشعلة التي اضاءت الصحراء"؛ فالبادية ليست فقط الرمال والجدب والسهوب، وهي بدون شك ليست فقط تلك الفيافي التي يستعصي فيها على النظر التمييز بين السراب والغدير .

فعلى تخوم صحراء الربع الخالي قامت مناطق استيطان مستقرة اتخذت من بطون الوديان بين كثبان الرمال او في مجاري السيول قرب الجبال او عند التقاء الصحراء والبحر مراكز تجمعات سكانية لها حضور ثقافي وحضاري منذ القدم.. خاصة مناطق الحافة الشرقية والجنوبية الشرقية لصحراء الجزيرة العربية .

وتعتبر واحات النخيل، ووديان شجر الغاف، والقرى الساحلية ابرز هذه المناطق السكانية، حيث تشكل النخلة، في الاولى، مصدر غذاء رئيسياً فضلاً عن استخدامات اخرى كثيرة؛ وتدور انشطة سكان وديان الغاف حول قوافل الجمال ورعي الماشية؛ بينما يأتي البحر في القرى الساحلية على رأس اهم مصادر كسب الرزق. واذ ذاك، فان المناطق الثلاث ليست بعيدة عن الطبيعة القاحلة والشمس الحارقة وخواء الارض الذي عرفت به الصحراء. واهلها وان لم يمضوا حياتهم متنقلين وراء العشب والمياه، الا انهم لم يكونوا بمنأى عن المكابدة العظيمة التي يعانيها البدو الرحل، وبالتالي فهم لا يختلفون عنهم بشيء، وان اختلفت انماط حياتهم ووسائل مصادر رزقهم بعض الشيء.. لا سيما وان معظمهم ينتسبون للقبائل نفسها .

ويقال ايضا ان نمط حياة الانسان البدوي وعالمه المحكوم باعراف وتقاليد القبيلة لا تسمح له بالخضوع لقانون أو سلطة! لكنهم ينسون ان البدوي انسان ولد وعاش على الفطرة في منطقة لا نهاية لحدودها.. ولعل هذا الاتساع هو ما ولد في نفسه التوق الدائم الى الانطلاق وصاغ في نفسه نوعا من الحرية لا يعرفها سكان المدن، كما ان المكابدة المستمرة مع بيئة قاسية كالصحراء استنفذت ما لديه من طاقة ولم يعد لديه متسع لقوانين ونظم تكبل حريته. فالصحراء جردت منه الصبر كله!

نعم.. إن الصراع الازلي من اجل البقاء في واحدة من اكثر البيئات قسوة وخشونة جعلت من الانسان البدوي ـ على اختلاف مناطق سكنه وطبيعتها ـ انساناً حساساً ومتوتراً وعصبياً، الا انه

يتمتع بخصال نبيلة ومثالب حميدة. ولا تزال شخصية البدوي التاريخية تجسد في اذهان كثير من عرب المدن نموذجا للعربي الاصيل الذي ظل يحتفظ باخلاق ونبل وشهامة العرب القدامى !

وتعد صفات الكرم والنخوة والضيافة بعضاً من صفات البدوي الاصيل، بيد ان الكرم عند البدو لا يتمثل في عادات ولائم البذخ والاسراف التي يقيمها بعض أغنياء المدن طمعاً في منزلة اجتماعية لا يملكونها او ابتغاء خصال يفتقرون الى مقوماتها، وانما هي الاستعداد الفطري للفقير لتقديم آخر وجبة طعام يملكها لضيف حل عليه أو التخلي عن آخر ما يمتلكه لاغاثة محتاج. بينما تتجلى صفة النخوة في حماية الضعيف ونجدة المستغيث. ويتجسد خلق الضيافة في ابسط صوره: بتقديم التمر والقهوة العربية ، التي تعد اكثر من مجرد شراب وانما هي تعبير عن دفء الترحيب. ويشكل موقد النار تحت ظل شجرة غاف مجلساً للقاءات ومركزا لجمع الناس للتشاور في امور تجارية او سماع الاخبار او تسوية خلاف. وتتخذ اليوم العديد من المؤسسات السياحية في الجزيرة العربية من دلة القهوة رمزا يدل على حسن الاستقبال وجودة الخدمات.

يقول المغامر البريطاني ولفرد ثيسجر، الذي عبر صحراء الربع الخالي خلال الفترة ما بين عامي 1945 و 1950 مرتين.. الثانية منهما أخذته من صلالة في جنوب عمان إلى صعر في حضرموت وسليل جنوب المملكة العربية السعودية وصولا إلى واحة ليوا في امارة ابوظبي، بصحبة عدد من البدو، عن سكان الصحراء "... ويظل كرمهم السخي رغم شح مصادر رزقهم وما يملكون اعز ما في ذاكرتي... ولاني لم اكن بدويا كان يغيضني تقديم آخر ما تبقى لدينا من طعام للزوار."

وفي مكان آخر من كتابه الكلاسيكي "الرمال العربية"، الذي يصف فيه مغامرته تلك ويتناول فيه حياة البدو، يقول ثيسجر، الذي لقبه البدو باسم "مبارك بن لندن" عن قناعتهم بالحياة التي ارتضوها لأنفسهم:"إن جل من يطلبونه القليل من ضروريات الحياة، فهم يبتغون من الطعام ما يسد الرمق، ومن الملبس ما يستر أجسادهم العارية، ومن المأوى ما يدرأ عنهم لسعة الشمس ولفح الريح ."

تقوم حياة سكان واحات الصحراء على تربية الجمال والماشية، لكن اعتمادهم عليها يختلف قليلاً عن تلك التي يتبعها البدو الرحل. ففي وسط الصحراء تربى الجمال لسببين: الغذاء المباشر (الحليب واللحم) والبيع، بينما يربيها سكان الواحات) وديان الغاف)، علاوة على ما سبق، للنقل التجاري والمسافرين .

ولأن الجمال هي من نتاج الاقتصاد الرعوي، فان سيطرة سكان وسط الجزيرة العربية على حركة تجارة قوافل الجمال تعود الى الالفية الثالثة قبل الميلاد، وهي الفترة التي اشارت كتابات الآشوريين الى بدء تهجين الابل. وتعززت سيطرتهم على تجارة القوافل اكثر فأكثر بعد ظهور السرج والسيوف وادوات القتال المعدنية الاخرى .

ولا شك ان البدو بسطوا هيمنتهم على خطوط النقل ولعبت جمالهم دوراً متزايداً في تجارة "الترانزيت" خلال العصور التالية لذلك، فقد كانت مواد الطيب والبخور والتوابل تنقل بحراً من الهند وشرق افريقيا الى مدن الساحل الشرقي للجزيرة للعربية، ثم تنقل برا على ظهور الجمال مع اللبان من ظفار بجنوب عمان واليمن الى مراكز المقايضة التجارية في شمال الجزيرة وبلاد الرافدين وبلاد الشام. ونتيجة لذلك تحولت بالتدريج الكثير من الواحات والقرى التي تقع على دروب القوافل او في مفترق الطرق إلى مدن مزدهرة (رحلات الشتاء والصيف .(

وبعد ظهور الاسلام واصلت قبائل البدو، في الجزيرة العربية، تحكمها في حركة النقل التجاري ونقل الحجاج والمسافرين بين مدن الدولة الاسلامية، وازداد الطلب عليها بعد الفتوحات الاسلامية. واصبحت قوافل الجمال منذ ذالك الحين الى عهد قريب، قبل دخول وسائل النقل الحديثة، الوسيلة الاساسية للنقل البري.

تعيش اسر سكان الوديان في منازل تبنى من جذوع النخيل وسعفه وأغصان وخشب الغاف التي تجمع في حزم وترص بحبال ألياف النخيل. ويتكون منزل الأسرة المتوسطة عادة من خيمة أو اكثر مغطاة من جميع الجهات بالسعف واغصان الغاف بإحكام، ويفرش فوقها قماش "الطربال" لمنع تسرب مياه المطر، وتستخدم للمبيت أثناء ليالي الشتاء القارس وتستغل كمخزن في بقية اشهر السنة، وعرشان تبني اسقفها من أعواد سعف النخيل بعد إزالة الورق وربطها بحبال الليف وتفرش فوق عوارض تشذب من جذوع النحيل أيضا، وهذه توفر الظل وتسمح بانسياب الهواء وتستخدمها الأسرة للمعيشة طوال أيام السنة. ويقام المنزل عادة قرب شجرة غاف وارفة او تحت ظلها. وتستغل الشجرة اذا كانت خارج المنزل للاحتفاء بالضيوف واقامة المناسبات.

وعلى مسافة قريبة من البيت تقام حضيرة المواشي، وتقيد الجمال تحت شجرة الغاف نهاراً وتنقل ليلاً الى مكان آخر اكثر ارتفاعا تكون فيه طبقة الرمل على الارض اسمك مما يتيح لها التمرغ والنوم على ارض اكثر نظافة وليونة. بيد ان عدد هذه الوحدات واسلوب بناء المنزل والمواد الداخلة في تركيبة تعكس بوضوح مكانة الاسرة القبلية ووضعها المادي.

وتشكل تجارة القوافل المصدر الرئيسي للدخل لمعظم سكانه.. سواء ملاكها او المستأجرين على رعيها وتسييرها، حيث يشتغل معظم الرجال من سكان الوادي في تسيير قوافل الجمال لنقل المحاصيل الزراعية والمواد الغذائية وتنقل المسافرين بين الوديان وواحات النخيل والقرى الساحلية واسواق المدن الكبيرة .

وتمثل الجمال عصب حياتهم ومجال اهتمامات السكان اليومية، وهي، اذ ذاك، المركز الذي تدور في فلكه انشطتهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وهي علاوة على كل ذلك مدعاة للفخر واساس لقوة القبيلة ومنعتها واتساع نفوذها !

وتتولى النساء، الى جانب المهام المنزلية، تربية الماعز والسرح بها الى المراعي، والاشغال اليدوية المصنوعة من وبر الابل وشعر الاغنام. ويشكل غزل خيوط الصوف والشعر مصدراً هاما للعديد من الأسر، بينما يكون نسيج ألحفة وأغطية الشتاء والشمائل والخروج والساحات والزرابيل اهم المنتجات التي تنجزها النساء.

وتمثل المراعي الطبيعية اهم مصادر غذاء الجمال وقطعان الماعز، وفي اوقات القحط والجدب عندما تشح المياه وتضيق المراعي القريبة وتهزل الماعز والجمال، يمثل حسن ادارة وتنظيم دورة توالد الجمال والمواشي اهمية بالغة تترتب عليها حياة الافراد والقبيلة كلها، حيث يمكن بذلك توفير الحليب ومشتقاته الذي يعتبر مع التمر جزءاً اساسيا من مائدة الاسر البدوية! ويلجأ البدو في هذه الاوقات الى الجاشع والتمر الحائل والحشف لتوفير الغذاء للنوق والماعز .

وتعزى تربية الماعز دون سواها من المواشي الى ميزة التوالد حيث ان معدل تكاثرها عالياً بالمقارنة مع انواع الماشية الاخرى، وهي تشكل بالتالي مصدراً احتياطياً يرجع اليه لضمان الاحتياجات الاساسية للاسرة ـ سواء بيعها في مناطق التجمعات السكانية في مناسبات الاعياد حيث يفضل سكان المناطق الشرقية لحم الماعز عن لحم الضأن او الاستفادة مما توفره من اللبن

ومشتقاته.

ان اتقان مهارات العيش في منطقة على تخوم واحدة من اشد المناطق في العالم قسوة ليس ضرورياً لحياة الفرد وحسب، بل يصوغ بمرور الوقت كيانه وقيمه الاجتماعية ومن ثم مواقفه وعلاقاته تجاه القبيلة التي هو عضو فيها. وليس ثمة متسع في حياة البدو للـ"أنا "وانما "نحن" هي سر بقاء الفرد والجماعة.

يرتبط في ذاكرة الناس ان الحياة الاجتماعية في الصحراء جدباء كوحشة المكان الذي لا يجاوره غير الخواء الكامل على الارض وفي السماء. وانعكس ذلك ـ حسب رأيهم ـ على الحياة الاجتماعية والابداع الانساني ونسوا ان الذاكرة العربية الخصبة بالشعر والحكايات والاساطير الشعبية هي نتاج الصحراء وان البادية هي مهد اللغة العربية وحاضنتها. وعادة ارسال عرب مدن شمال الجزيرة والهلال الخصيب ـ حتى وقت قريب ـ ابنائهم للاقامة في البادية بين احدى القبائل العربية الاصيلة لاتقان اللغة والتأدب بآداب البدو خير ما يدل على فضل البدو في ذلك المضمار.

وثمة من يظن ان لا مكان عند البدوي لامتاع الروح في ظل صراعه الدائم مع البيئة. وهنا يخطئون ايضا! فليالي الصحراء زاخرة بمشاهد الفرح واطياف المرح ورواية الحكايات والاساطير الشعبية عن بطولات وامجاد لا ينضب معينها.

ويدور حول موقد النار وفناجين القهوة وحبات التمر حديث الرجال ويتناول أموراً مختلفة تتخللها اخبار الوديان المجاورة او ما تتناقله القوافل بما يفيدهم على تسيير قوافلهم نحو المناطق التي يكثر الطلب فيها على قوافل النقل. وتروى في مرمس الرجال الحكايات والطرائف والشعر. ويتحدث الاوفر حظاً بالعلم منهم عن قضايا دينية وأمور تاريخية ويحكون قصص الانبياء والمسلمين الأوائل ويروون تاريخ العرب وحروبهم الاهلية وضد الغزاة، ويتحدثون عن الفتوحات وانتشار الدين.. وهذا غيض من فيض !

ذلك كان نمط حياة بعض من البدو لم يطرأ عليه تغيير طوال مئات السنين .حياة ارتضوها لانفسهم! لكن رياح التغيير التي هبت على دول الخليج العربي في العقود الأخيرة بسبب اكتشاف النفط أنهت، إلى غير عودة، أساليب حياة البدو بكافة أشكالها، واخذت سماتها تتغير وطغت على حياتهم افرازات النمو الاقتصادي. وكانت اكثر التحولات هي تلك التي ترتب عليها إدخال وسائل النقل الحديثة، فقد شقت الطرق المسفلتة الصحراء وحلت السيارة محل الجمل. ولم يكن بوسعهم سوى التخلي عن نمط حياة لم يعد يلائم العصر، وتحولت التجمعات السكانية إلى مدن صغيرة "تنعم" بالمساكن الاسمنتية الحديثة والكهرباء والمياه والخدمات الاجتماعية كالتعليم والرعاية الصحية.

_____

الجاشع: سمك السردين الجاف. الحائل: التمر الذي يحول ليه العام. الحشف: الفاسد من التمر

المدينة

الدخول إلى المدينة من جهة الشرق، حيث تقع العيجة، يمر عبر بوابة كبيرة في وسط سور يمتد شمالاً إلى البحر وجنوبا إلى قمة الجبل المطل على المدينة من الشرق والجنوب. توقفت القافلة خارج البوابة واخذ المكاري يقيس ارتفاع البوابة بعصاه ثم يقارنها بارتفاع اعلى حمولة حتى يتأكد من مرور القافلة تحت القوس دون إعاقة.

هذه اول صورة تعلق بالذاكرة عن المدينة.. فليس في الوادي منازل من الطين او الاسمنت، وليس ثمة جدران او اسوار تحجب بعض الناس عن بعضهم الآخر!

دخول القافلة بين ازقة المدينة المكتظة بالسكان، والمنازل، والابراج يأتي لاطفالها بتسلية من نوع آخر تتطلب الجسارة وحسن التوقيت! فتراهم يتنافسون على عبور السكة بين سيقان الجمال وهي تمشي !

ويبدو ان الجمال تعودت على هذه التسلية، فهي لا تحرك ساكناً عندما يبدأ الاولاد ممارسة لعبتهم، بل بدا الامر للصبي وكأنها تسير بوتيرة منتظمة تتيح لهم تقدير سرعتها وحركة سيقانها قبل الانطلاق، وظن انها ربما متواطئة معهم اخذاً في الاعتبار ما فعلته الناقة بأمه واخته الصغيرة عندما جفلت من ارنب بري مر امامها في حين لا تبدي هنا حركة عندما ينسل الاطفال بين سيقانها وهم اكبر حجما من الارانب بكثير.

ورغم محاولات المكاري هش الاولاد بعصاه والتلويح بها لابعادهم الا انه لم يبذل جهداً كافياً لوقفهم عن تعريض حياتهم للخطر، وسمع يقول:

- اللعنة عليهم، اذا كانوا يريدوا موت لعمارهم ايش تريدني اسوي لهم !

توقفت القافلة عند خيصة العبرة على جانب الضفة الشرقية من خور البطح، وهذا هو آخر مكان تصل اليه القوافل القادمة من الشرق. جاء `راعي العبرة `واولاده للترحيب بالقادمين وتنسيق عملية العبور إلى الضفة الغربية من الخور. ثم جاء بعدهم سعدون الكفيف يلتمس دربه بعصاه تفوقه طولاً عارضاً خدماته لنقل الامتعة إلى هوري العبرة. تزاحمت الأسئلة، لكن الوقت غير مناسب ووالده على غير استعداد الآن للشرح والتفسير!

تأخر وصول العبرة من الضفة الغربية اتاح لعوض الوقت للتعرف والاقتراب اكثر من سعدون. وسرعان ما ألف الواحد منهما الآخر! وعرف ان أهل المدينة لا يرون في سعدون سوى بصره المفقود وقدرته الرهيبة، رغم وهن جسده، على نقل الاحمال والقيام بالاعمال التي يبتعد عنها كثيرون لمشقتها او يتعففون عنها لوضاعتها، والعلاقة التي تربطهم بسعدون لا تتعدى مفرداتها: ارفع، احفر، وخذ !

ترك ذلك اللقاء العابر في وجدان الصبي الذي احس بغربة المكان والناس كما يحسها سعدون وان كان منهم، اثراً سيظل يتذكره طوال سنوات عديدة قادمة! وفي محاولات للقص لم ترى النور بعد ذلك اللقاء بسنوات طوال كتب نصاً قصصياً قصيراً عن سعدون سماه "القراءة في الظلام."

على الضفة الغربية من الخور البطح كان في استقبال الاسرة عدد من اقارب صالح حيث تعاونوا جميعاً على حمل الامتعة الى منزل العائلة الذي يبعد نحو كيلومترين من هناك. ويمر الطريق الى

الحارة عبر سكة البوش التي تمتد ما بين البطح الى السوق ثم الى خارج صور من جهة الغرب. ولقد سميت هذه الطريق باسم البوش لانها السكة الوحيدة التي يمكن لقوافل الجمال المرور وهي تنقل شحنات السفن الى السوق او الى خارج المدينة في طريقها الى المناطق الداخلية من عمان!

كان منظر الرجال وهم يتحركون بين السكيك الضيقة وعلى اكتافهم الامتعة يشبه كثيراً قافلة الجمال التي تربط اخطمتها في ذيول بعضها البعض، حيث كانوا يضطرون في زوايا السكيك الى السير بالتتابع والمناورة لتمرير الاحمال دون تعريضها للاصطدام بجدران المنازل العالية.

أثارت المنازل الفخمة ذات الطابقين التي دهنت بمسحوق النورة البيضاء وابوابها ونوافذها الخشبية المحفورة بنقوش جميلة واقواسها المبلطة بقوالب من الجص فائقة الجمال، دهشة الصبي عوض الذي كان يتخلف عن المسير وهو ينظر اليها بانبهار حتى يأتيه صوت والده يحثه على اللحاق بهم .

واذ وصلوا الى المنزل كانت دهشته اكبر وهو يرى ساحل البحر يكاد يلامس جدران البيت. وعندما انفتح الباب كانت المفاجأة اشد من سابقتها حين استقبلوا بالاحضان داخل حوش لا تتجاوز مساحته المئة متر من قبل اكثر من عشرين شخصا: جميعهم سكانه !

بعد وقت ليس بطويل تعرف عوض على السكان والمسكن، وهم: عم والده وزوجته وولدهما وزوجته واولاده واحدى بناتهما واولادها؛ ثم جدته، وعمته وابنتها، وعمه وزوجته وابنهما. اما المسكن فيضم :بخارين وسبلة وبنغلة تطل ابوابها على الحوش، وغرفة تقع في الطابق العلوي.. وتلك اجمل ما في البيت.. بسطحها الواسع المطل على البحر الذي تفرش ارضيته بالحصحيص ويتخذ للنوم صيفا واستقبال ضيوف ساكني الغرفة. ويوجد في احدى زوايا الحوش موقد النار وفي الاخرى المقابلة حظيرة الغنم وبينهما مخزن للاخشاب والسخام ومواد ـ ابلغ اظن ـ انها معدات بحرية .

ولك ان تتخيل مقدار الزحمة التي تنشأ اثناء اعداد الطعام او استخدام المرافق الاخرى، الا ان ذلك لا يمثل اية إشكاليات او خلافات بين سكان المنزل! ولقد استأثرت الاسرة الجديدة بالسبلة وهي افضل الحجر في الطابق الارضي وان لم تخل من بعض السلبيات. وتطل نوافذ السبلة على البحر مباشرة مما يجعل سكانها ينعمون بنسيم البحر الرطب اثناء الحر، لكن هذه الاطلالة تتحول اذا هاج البحر الى ملامسة غير مرغوبة حيث تهز امواجه النوافذ ويعبث الماء المتسرب بالفراش.

—

خيصة: خليج صغير. البوش: الجمال. النورة: بودرة الجبس تطلى بها المنازل قبل دخول الاصباغ الحديثة. السكيك ومفردها سكة: الطرق والازقة الضيقة بين المنازل. بخار: غرفة تكون عادة بدون نوافذ تستخدم للاقامة في الشتاء. سبلة: غرفة ذات نوافذ كثيرة للسكن واستقبال الضيوف، وتكون عادة مرتفعة قليلا عن مستوى ارضية الحوش، وتعد السبلة في عمان رمزا للضيافة. البنغلة: غرفة صغيرة لها نوافذ تستخدم للاعاشة وتناول الطعام، واظن ان اسمها يعود الى الكلمة اللاتينية .Panglo الحصحيص :نوع من المرجان الاسفنجي تصلب وتكسر بفعل حركة الامواج والتيارات البحرية، وتقذف به الامواج على الشواطئ حيث يجمعه السكان وتفرش به الاحواش. ملمسه على الرجل لين ويصدر خشخشة محببة اذا تحرك على بعضه البعض!

الريحان والدخان

صعب على الصبي الاندماج مع اولاد المدينة، وهم لم يألفوه ايضا! هو ظن ان هيئته او لعلها ملابسه الغريبة: دشداشة قصيرة مصبوغة بالورس تعري ركبتيه، وكيس جلد يتحزمه ليلاً ونهاراً لحفظ نقود لم تدخله قط، وحرصه على لبس عمامة لا يلبسها صبيان المدينة الا مرغمين في المناسبات؛ هو مرد هذا الاستقبال الفاتر .لكن اتضح له وهم يرددون السؤال ذاته "ايش اتقول؟" ان لهجته استعصت عليهم ـ او قل على فهمهم ايضا.

طباعه التي تنم عن تربية بدوية يبدو انها ساهمت في خلق هذه الجفوة. فبقدر ما كان غريباً عليهم كانوا هم لا يقلون بالنسبة له غرابة.. خاصة في ألعابهم وتساليهم تلك التي يجري معظمها داخل البحر او على شاطئه.

لم يشعر يوما بهذه الغربة والعزلة! أراد التقرب منهم، ظن خطاء أن البحر سيكون وسيلته. لكن محاولاته تعلم السباحة كانت مثار ضحكهم.

ولشد ما رغب، وهو يكبت وقع سخريتهم منه، ان يعرفوا انه اذا كان لا يجيد السباحة فانه يجيد ركوب الجمال والضغط على الزناد وصيد الغزلان.. لا صيد الحواسين كما يفعلون هم.

ازاء ذلك آثر الانسحاب على وعد من ابيه بتدريبه على السباحة في مكان لا يراه فيه احد. انشغال والده بترتيب وضع العائلة السكني والمعيشي، ووجل البداوة وضيق فسحة المكان كانت اكثر من ان تطاق من صبي فتح عينيه على صفاء السماء وخواء الارض، وسهر على ضوء القمر ونام تحت فوانيس النجوم.

وجاء قريب له ليرافقه الى السوق: كالبحر ايضاً ..السوق سر آخر من اسرار المدينة! لا اباه ذكر شيئا عن السوق ولا امه. كل ما يعرف عنه ما سمعه من مبالغات شباب الوادي عندما كان يعود أحدهم من المدينة، وان اقتصر حديثهم عن السوق على وصف بياض حريم "البنايين" ومهارتهم في تسيير القوافل المحملة داخل ازقتها الضيقة. قال له احدهم يوما: عندما تكبر وتذهب الى المدينة لا تنسى ان تشتري" القشاط "

عند مدخل سوق المسباخ توقف الصبي. نظر: ساحة واسعة تغص بالناس على اختلاف مهنهم: دلالون وبائعه سمك وسقاة مع حميرهم المحملة بقرب الماء والبرسيم، ونساء يعرضن الحلويات، وحمالون.. وآخرون لا يعرف ماذا يفعلون او يبيعون !

وبدهشة ملأت عينيه نظر الى تبريزة ضخمة جلس على طرفها القرفصاء رجل لم يشاهد مثله من قبل: لا لحية له ولا شارب !
سمعه وهو يقول لمحمد ـ الصبي الذي جاء برفقته :
•ود من هذا؟

ابتسم! تذكر خاله وهو يقلد لهجة اهل المدينة ويبالغ في تليين مخارج الحروف عندما ناداه الغربي بلهجة بدت غريبة عليه ولكنها ستصبح مالوفة بل ومحببة له في ايامه القادمة :
•ايش حالك يا عوض؟.. تعال سلم على عمك الغربي .

تردد قليلا! لكن ابتسابة الرجل التي كشفت عن سن تدلى وحيداً من فك فمه العلوي ونزوله عن سطح التبريزة شجعته على الاقتراب منه ومصافحته. ضيف الغربي الصبي بهبشة من سكاكر النعناع ثم عاد الى جلسته السابقة على حافة التبريزة.

جلس الصبي على كرسي خشبي طويل وهو يلوك قطع النعناع، وبطرف عين اخذ يختلس النظر الى الوجه الامرد، لكن سرعان ما شده منظر ما كان يفعل الغربي ونسى وجهه الخالي من الشعر.

كان يمسك بأطراف اصابع يد واحدة ورقة بيضاء صغيرة قعرها على طولها ثم دس ابهام يده الاخرى وسبابتها في عبوة معدنية واخرجهما ممسكا بشيء يشبه الشعر وزعه على طول قعر الورقة ولفها بمهارة على شكل اسطواني، وبلل حافتها بطرف لسانه وفركها قليلا ثم رصها في صينية وضعها بجانبه .

الصبي كان يتابع حركات الغربي التي توالت على نفس المنوال.. ومعها كان يغني نوعاً من الغناء الشعبي. قطع عليه الرؤية زبون جاء يطلب واحدة من تلك اللفائف التي يصنعها صاحب التبريزة .

وضع الزبون اللفافة من طرفها المستدق في فمه. اشعل طرفها الآخر بعود ثقاب. سحب نفساً. امسك اللفافة بين اصبعين. كتم نفسه لحظات طالت او قصرت. اخرج من فمه دخاناً كثيفاً نفخه الى الاعلى وتابع تلاشيه في الجو بطرف نظره !

اذ شعر الزبون بمتابعة الصبي لحركاته اخذ ينفث الدخان من انفه حيناً، وحيناً آخر كان، يخرجه من فمه على شكل حلقات متتابعة تذوب تدريجيا في الهواء الواحدة تلو الاخرى.

غادر الزبون. نزل الغربي الذي كان يتابع اندهاش الصبي من منظر الرجل المدخن. جلس الى جانبه وهو يمسك واحدة من تلك اللفائف. شرح له عما في داخلها واخبره ان اسمها سيجارة، واضاف :
•ولكن مب زينة وريحتها خايسة .
وهو ينظر الى ذي الوجه الامرد قال في نفسه " اذا كانت خايسة ليش تبيعها للناس!!". أراد ان يجهر بها، لكنه فجأة سمع صوت امه يتردد في مكان ما داخله "لسناك حصانك ان صنته صانك"، علك طرف لسانه باسنانه وصدر منه صوتا كعواء الثعالب لم يستطع كتمه!

تشتهر تبريزة الغربي بأفضل وابرد شربة ماء يمكن الحصول عليها في السوق كله. يبرد الغربي الماء في برنية مثبتة من قاعدتها المخروطية داخل ثقب دائري على طاولة خشبية ارتفاعها حوالي متر واحد. والى جانب البرنية صف عدد من الكريوات ثبتت على ذات الطاولة بنفس طريقة البرنية، وفي هذه الاواني الصغيرة تباع شربة الماء مقابل بيسة واحدة .
ويعطر الغربي بعض الكريوات باوراق الريحان لمنح زبائنه الاختيار ما بين الماء العادي وشربة بعبير الريحان.
—
القشاط: حلويات تصنع محليا من السكر والمشاء والمكسر
اتالورس: خضاب لصبغ الاقمشة.
الحواسين ومفردها حاسون: سمك صغير يصطاده الاولاد قرب شاطئ البحر.

البنايين: التجار الهنود الذين كانوا يحتكرون تجارة الجملة، وبالاخص مع سكان المناطق الداخلية.
المسباخ: الساحة المفتوحة من السوق .
تبريزة: صندوق خشبي ضخم يتراوح طوله ثلاثة امتار وعرضه متران وارتفاعه متر ونصف .. كان يستخدم كمخزن ومعرض للبضائع في السوق الشعبية بمدينة صور حتى منتصف السبعينيات من القرن الماضي.
هبشة: حفنة.
برنية: اناء فخاري كبير مخروطي يحفظ فيه الماء ويبرد قبل ان يوزعه اصحاب التبريزات في كريوات ومفردها كريوة: اناء فخاري ايضا بحجم قوارير المشروبات الغازية ويشرب منه
الزبائن مباشرة مقابل بيسه: قطعة نقد تركية كانت تستخدم في عمان قبل سك النقود الحالية وهي تساوي واحد من المائة من القرش الفضي او ما يعرف بالدولار النمساوي (دولار ماريا تريزا.(

البرزة

استمرار تمنع اولاد الحارة واستعصاء اقامة علاقة ودية معهم، دفع الصبي الى التردد على التبريزة. ووجد الغربي فيه حارساً ومعاوناً اميناً في بيع الماء وتحصيل ثمنه في حضوره او غيابه. من البرزة بدأ الصبي يتعرف على بعض رموز السوق!

يتعذر على الزبون او الزائر لتبريزة الغربي اثناء الفترة ما بين صلاة العصر وقبيل صلاة المغرب تجاهل برزة العصرية ـ او جلسة "القيل والقال" كما يسميها الخراصي، جار الغربي، تهكماً !

تجمع البرزة عددا من رجال المدينة ـ المرموقين ربما.. وبقدر ما تتقارب اهتمامات بعضهم تتباين المستويات الثقافية لبعضهم الآخر، لكن لا الاولى بالضرورة تجمعهم ولا الثانية تفرقهم. اعضاء البرزة منهم دائميون وآخرون غير منتظمين .

الفئة الاولى تضم هاشل كاتب الرشيد، النوخذا حمد محمد، الشايب خميس ود مطر، الاستاذ ناصر معلم المدرسة النظامية الوحيدة في المدينة، علي الغاوي بائع المواد الغذائية بحكم الجوار، والغربي بحكم استضافته لها حيث يقدم البساط وبعض ادوات التسلية.

الفئة الثانية تتكون من الشيخ سعيد امام المسجد الجامع، خلفان الذيب، مبارك الصليط، وحافظ راعي الفرضة وآخرين غيرهم.

حديث التبريزة يتباين ويتشعب حسب الموجودين: ففي حضور الاستاذ ناصر وهاشل يأخذ الحديث مجرى سياسياً. اذ ترتفع حدة النقاش في مواضيع مثل انفصال سوريا عن مصر ـ كانت تضمهما "الجمهورية العربية المتحدة". يعلو صوت الثاني معارضاً التدخل المصري في اليمن بطلب من حكومة الجمهوريين في صنعاء. يؤكد هاشل كعادته وجهة نظره في أي نقاش بلغة عربية فصحى يبالغ في الحرص على اظهار مخارج الفاظها تمايزا عن الآخرين. على هذا التواتر يدور معظم الحوارات: ترتفع الاصوات. يتجمع الناس.. وتزداد حركة البيع في هذا الركن من السوق!

ود مطر لا يعنيه كثيرا هذا النوع من النقاشات ولعله لا يفهمها. فينشغل عن المجموعة اذا ارتفعت الاصوات بضرب البوري على نتوء صخرة برز من الجدار. يدخل الطرف المدبب لمسمار اخرجه من كيس التنباك لازالة الرماد من فم البوري بعناية فائقة. يقربه ويبعده عن عينيه، ثم يخرج التنباك ويضغطه بابهامه قبل ان يقلب المسمار ويدك رأسه في فم البوري .

يشعل عود ثقاب. يمسكه بيد. يحجب الهواء عن الشعلة باليد الاخرى وهو يقربها من البوري . تراه يمط شفتيه لسحب الدخان وهو ينظر شزراً الى هاشل اذا انفعل ورفع صوته عالياً عندما يحس ان وجهة نظر الطرف الآخر في موضوع النقاش تحظى بموافقة المستمعين؛ ثم يمد يده بالبوري لخلفان قبل ان تخبو النار .

في ذروة النقاش الدائر، وكناية بهاشل يسأل ود مطر الغربي عن سعر البرسيم او يتبادل الحديث مع صياد وقف يستمع لما يدور في البرزة قبل ان يدخل دكان علي الغاوي عن الصيد واسعاره .

هاشل يجد في ذلك عذراً لمغادرة البرزة. يدعي انه لا طائل من الحديث في قضايا سياسة والثقافة مع "امة" لا تتعدى همومها البرسيم او السمك! يغادر منفعلا.. وهم يدركون ان انشغال ود مطر عن موضوع الحديث ليس السبب الحقيقي وراء ترك هاشل البرزة وانما شعوره ان محاوره تمكن من اقناع الآخرين بصحة وجهة نظره !

الغربي ايضا يحاول مجاراة المجموعة الاكثر ثقافة عندما يقاطع المتحدث بلازمة لا تفارقه: ايش قصدك؟ او يبدي وجهة نظر في الحديث من وقت لآخر وهو على جلسة لف السيجارة على سطح التبريزة. ورغم ان مشاركته لا ترقى الى مستوى آراء هاشل وناصر الا انه يحظى باهتمام خليفة الذيب وود مطر.

وعندما لا ينشغل هاشل وناصر بحوار ساخن او في غياب احدهما او كلاهما، يتحدث كبار السن عن ذكريات الماضي. يعيد النوخذا حمد للمرة المئة ـ ربما ـ حادثة غرق البغلة "فتح النور" بصاروخ من غواصة المانية في بحر العرب خلال الحرب العالمية الثانية. تراه في كل مرة يصمت لحظات ويأخذ نفسا عميقا.. محاولا اضفاء مسحة حزن على صوته. وكأنه يروي القصة لاول مرة!

ويضيّف الغاوي البرزة، ايام البرد، بملة من عصيدة الدبس التي تحسن زوجته صنعها. لكنه يتاخر في تقديمها حتى يجتمع اكبر عدد من الرجال في البرزة ـ لزوم الوجاهة.. هكذا يعلق خليفه عليه. في هذه المناسبة يدعو الغربي جيرانه او بعض زبائن السوق الى تناول العصيدة: دعوة لا تروق للشايب ود مطر ..لانه في النهاية لا يحصل الواحد منهم على اكثر من لقمة واحدة. ويهمس في اذن صاحبه خليفه "ما تسوى زرانة"

وينشغل علي الغاوي خلال فترة العصر ـ وهي الذروة لتجارته ـ كثيرا بتحضير طلبات زبائنه الصيادين التي لا تتعدى المتطلبات الاستهلاكية ليوم واحد فقط. فمنهم من يشتري كاس عيش وكيلة طحين ومغراف كاز، ومنهم من يحمل الى بيته اذا كان المردود وفيراً السيويا وعلبة فاكهة من الاناناس او سواها، فضلا عن بعض الخضراوات والفواكه الموسمية كاطماطم والرقي والموز .

وفي غمرة انشغاله لا يفوته شئ مما يدور في التبريزة، ولا يعيقه وهو يزن طلبا او يلف آخر في قصاصات جريدة يصنع منها فورا، ببراعة فائقة، كيسا مخروطيا سعته تناسب كمية البضاعة المطلوبة دون استخدام اللصق او الخيوط؛ عن المشاركة في النقاش، وان كانت مشاركته تقتصر على عبارتين "حقه هاشل" او "صدقه استاذ ناصر."

يعلم كثيرون في السوق ان تجارة علي الغاوي ليست سوى هواية فضلها على الجلوس في البيت "رادي لا شغل ولا مشغله" كما يعترف نفسه بذلك !

ومع ان الفرصة واتته مرات عديدة لتوسيع تجارته او بيع الدكان وبسعر مغر، الا انه ظل متمسكا بتجارته المتواضعة وحريصا على خدمة زبائنه وجلهم من الصيادين؛ او "اهل البحر" كما هو شائع اسمهم؛ الذين تعتمد قوتهم الشرائية على حصادهم اليومي: فاذا كانت غلة البحر وفيرة، مروا، بعد بيع السمك، على الدكان .

اما في ايام الشح، فان اسر الصيادين تكتفي بالسمك ان وجد وبعض التمر، ولكنها ترسل اطفالها بصحون فارغة الى البيت العود في الحارة لجلب بعض من عشاء اهله او بدون صحون ليكون الاطفال ضيوفاً عليهم !

وهي عادة لا يجد فيها المعوز حرجاً ولا يعتبرها المانح فضلاً. وجرت العادة ان يتخذ اصحاب البيت العود احتياطهم عند اعداد وجبة العشاء في اوقات شح صيد السمك. وبدورهم يرسل الصيادون تحلي الى البيت العود عندما يكون حصادهم كثيرا.

مقابل البرزة وعلى جدار دكان علي الغاوي، يفترش اسحاق الشمار (الاسكافي) حصيرة: رجل سمين ترهل كرشه وكان يبدو وهو جالس بين ادوات صنع النعل والمعروض منها للبيع كأن له جزعتين .

على غرار الغاوي، مشاركة الشمار لا تتعدى ضحكة مجلجلة تهز كرشه كالسمّاط او التوقف عن غرز المغرز في نعال مهترية، طوقها بقديمه في وضع يستحيل عليها الافلات، والنظر ـ بعينيين مفتوحتين على اشدهما وفم فاغر ـ الى المتحاورين في البرزة اذ اشتد النقاش وارتفعت الاصوات!

وثمة زائر خاص يحتفى بوجوده في البرزة ويحييه الجميع وقوفاً، ويسود البرزة الصمت اذا تحدث: وهو الشاعر سعيد ودَ وزير، الذي يحرص الجميع على سماع الجديد من شعره وقصص مبارزاته الشعرية مع حافظ المسكري.

وعلى بضعة امتار من البرزة، في السكة نفسها باتجاه الساحل، دكان محمادي: تاجر التمر والدبس والدعون .

احيانا كان يطلب احد رواد البرزة من محمادي ان يبدي رأيا في موضوع النقاش وهو يعلم ان الرد سيكون ظريفا وفيه من اللمز والغمز ما يكشف طبيعة علاقة محمادي بصاحب الرأي! ولكنه، مع ذلك، يكن احتراماً شديداً للشاعر ود وزير، فيتأخر في الرد او يمتنع تماماً في حضور الشاعر لكي لا يفسد على الحاضرين متعة الاستماع الى شعره .

ويتمتع محمادي بقدرة فائقة على اطلاق النكات والتعليقات، وعلى ارغام الزبائن على شراء ما يريدونه ولكن بالسعر الذي يريده. ويروى عنه الكثير من المواقف الطريفة، فذهنه حاضر لا طلاق النكات والتعليقات التي تصيب هدفها. ود مطر نقل للبرزة ذات مساء ان رجال حارة الساحل كانوا ـ كعادتهم دائماً ـ متجمعين على الشاطئ امام المسجد قبل صلاة العشاء، وعلق محمادي على احد المارة فأثار الضحك بينهم، الا ان سالم الشط لم يتوقف عن الضحك طوال الفترة التي امضاها المصلون داخل المسجد لاداء صلاة العشاء. وقال انهم عندما خرجوا وجدوا ثيابه مبللة وهو لا يزال غارقا في الضحك !

—
البرزة: جلسة او لقاء اجتماعي.
النوخذا: قبطان السفينة، واصلها فارسي
.البوري: الغليون.
التنباك: التبغ.

الصيد: السمك.
امة:جماعة.
البغلة: سفينة شحن عملاقة مقارنة بالسفن التقليدية، اشتهرت بزخارف مؤخرتها، وتأثر تصميمها بالنموذج البرتغالي المعروف بـ"الغليون.
ملة: سلطانية.
عصيدة: اكلة تحضر من الطحين والدبس :عسل التمر، وتحضر كثيرا ايام الشتاء.
الزرانة: اللعاب.
كاس: وزن ويعادل ربع كيلو تقريبا.
عيش: رز.
كاز: كورسين.
السيويا: نوع من الماكرونة.
العود: كبير.
حقه: الحق معه.
تحليّ: هدية من السمك.
السمّاط: حيوان بحري هلامي ذو شكل شبه كروي.
الدعون ومفردها دعن: بساط من سعف النخيل يصف بعضه جنب بعض ويربط بحبال ألياف النخيل ويستخدم اما لسقف المنازل او يفرش على اعمدة وعوارض ترتفع عن الارض بمقدار متر ويسمى "السيم".
السبلة: المجلس في المنازل التقليدية.

تجليات الجنون

شكل جهاز الراديو في تلك الفترة اهمية بالغة في حياة سكان المدينة، وكان محور تجمع الناس على اختلاف مستوياتهم الثقافية والتعليمية، وفي اوقات الازمات السياسية العربية كان الراديو الشغل الشاغل للناس فهو الوسيلة الوحيدة للاطلاع على الاخبار في ظل غياب الجرائد او تأخر ما يصل منها. وكانت اذاعة صوت العرب بمذيعها اللامع احمد سعيد اكثر الاذاعات انتشارا ولعبت دورا رئيسا في جذب جمهور المستمعين على اختلاف مشاربهم ..

وكان خطاب الزعيم جمال عبد الناصر حدثاً هاما تعد له الجلسة، وتوضب له السبلة وترفع الاريلات وتقدم الدعوات للاستماع الى الخطاب! وكان البيت العود في الحارة (بيت العم عبدالله) المكان الذي يجتمع فيه اهل الحارة جميعاً للاستماع الى الخطاب.. ومن بينهم شخص يعرف باسم "زباد!"

هو من وجوه البرزة ومقيم دائم في السوق، وان كان لا يبيع ولا يشتري !لا احد يعرف له اسماً، اهلاً، او وطناً! من اين جاء وكيف جاء؟ سر آخر من اسرار زباد، لكن المدينة احتضنته فهي لا ترفض الغرباء ولا يعنيها ماضيهم وان كان سكانها يحبكون روايات وحكايات واحداثاً عنه تتفاوت حقيقتها وتفاصيلها بحسب راويها!

اهل البرزة اختلفوا ايضا حول قصة زباد. الشيخ سعيد، ناصر معلم المدرسة، وعلي الغاوي اجمعوا ان زباد جاء هاربا من سجون قوات الحلفاء في جنوب الجزيرة العربية بعد رفضه الانضمام الى فرق المستعمرات الانجليزية في آسيا .

ويدعم ناصر هذا الرأي بقوله ان الوشم الذي على جبينه والذي يغطيه بطاقية لا تفارق رأسه ويمسك عليها بقبضة قوية ان حاول متطفل نزعها على حين غفلة منه، هو صليب وشم به عقاباً على رفضه الخدمة العسكرية والاشتراك في الحرب ضد القوات النازية .

في حين يذكر هاشل قصة اخرى عن زباد. يتفق معه مسلم صاحب المطعم، وحافظ؛ وآخرون بينهم الغربي ومحمادي، ويدعي انه سمعها من نوخذا سفينة خليجية في زنجبار .قال: التقطته سفينة عربية من احدى القرى على ساحل جنوب الجزيرة العربية بعد ان هرب سباحة من طراد حربي ألماني.

وكان الطراد اعترض سفينة شحن بريطانية، محملة بالشاي من الهند، في الايام الاولى من الحرب العالمية واغرقها، بعد ان اخلى الالمان بحارتها ـ وزباد احدهم ـ وبعض المواد الثمينة كالوقود قبالة جزيرة نائية في بحر العرب .

ويؤكد هاشل صدق هذه الرواية بان الوشم ليس صليبا مستقيما وانما معكوفا كالذي اتخذه الالمان شعارا لهم!

الاستاذ ناصر اعترض على هذه الرواية .قال ان رواية هاشل مغالطة تاريخية. فحادثة اغراق السفينة البريطانية صحيحة لكنها وقعت في الحرب العالمية الاولى وليست الثانية، ولا يمكن ان يكون زباد حينئذ، اي قبل اكثر من خمسين عاما تقريبا، في سن التجنيد، وعمره الآن لا يتجاوز هذا العدد من السنوات .

اما الدليل على ان حادثة سفينة الشحن البريطانية وقعت خلال الحرب العالمية الاولى فهي واقعة تاريخية موثقة، ويضيف :
•سمعتها بهذه ـ وهو يشير الى اذنه ـ من برنامج عن الحرب الكونية الاولى من اذاعة الـ"بي بي سي."

ويتدخل النوخذا حمد بن محمد. قال انه سمع من احد كبار السن من سكان جزر الحلانيات عن حادثة اغراق طراد حربي لباخرة شحن، الا انه لا يعرف لمن الطراد او السفينة، ولم يسمع شيئا عن تاريخ حدوثها .

وذكر ان سكان الجزيرة وقفوا عصر ذلك اليوم على شاطئ البحر يشاهدون اغراق السفينة: وقعت اولا عدة انفجارات لكنها لم تغرق ـ الاستاذ ناصر ارجع التفجير لقنابل وضعها الالمان داخل السفينة حسب ما سمع من الراديو – ثم قصفها الطراد بعد ذلك بقذائف مدافع حتى اختفت تحت سطح البحر .

شاهد العيان هذا زاد ان سكان الجزيرة استيقظوا في اليوم التالي ليجدوا ساحل جزيرتهم وقد تحول لونه الى الاحمر القاني، فظنوا اولا انه دم بحارة السفينة المنكوبة، لكنهم عرفوا بعد ان فتحوا الصناديق التي قذفت بها الامواج الى الشاطئ ان محتويات تلك الصناديق هي مصدر تلك الصبغة .

سكان الجزيرة كانوا يجهلون محتويات الصناديق، فافرغوها واستخدموها لتخزين الاسماك المجففة انتظارا لموسم وصول السفن الصورية وهي في طريقها الى شرق افريقيا، حيث يقايض سكان الجزيرة حصادهم من الاسماك بالمواد الغذائية والمتطلبات الاساسية للحياة التي تجلبها السفن .

الجزيرة لم تكن تعرف حتى ذلك الوقت شراب الشاي. الصدفة، ليس الا، جعلت منه الشراب الوحيد والمفضل لدى سكانها. قالوا ان احدى نسائهم كانت تغلي قصب السكر واستخدمت قطعة لوح انتزعتها من احد تلك الصناديق، والتي احتفظت بين شقوقها ببعض اوراق الشاي، لتحريك الماء، وعندما رأت تغير لون الماء رفعت طرف اللوح وتذوقته بطرف لسانها فاستطابت المذاق. وهكذا عرف سكان تلك الجزيرة شرب الشاي بالسكر!

الفريقان اتفقا ان "زباد" ليس اسمه الحقيقي، وانما لقب اطلقته النساء عليه عندما عمل، بعد وصوله الى المدينة، بائعا متجولا بين الحارات.. ينادي ببضاعته من العطور ومعاجين الزينة "زباد.. زباد، عندي زباد؛ عندي مسك، عندي خضاب؛ عندي كحل، عندي بخور؛ عندي ورد، عندي ذرور؛ " ويختم اهزوجته بالبداية نفسها "زباد.. زباد، عندي زباد". هذا عن ماضيه !

اما حاضره فهو مجنون للبعض، وحكيم عند آخرين. يولد "الجنون" عنده من احشاء لحظات تحرر نفسه من المواجع فينغمس في طور لحظات يعيش فيها مأزوما بتداخل حكمة العقل وتجليات الجنون .

يحمل بداخل خرج التصق بظهره، كسنام جمل اجرب، كثرت رقعه وتمزق بعض صوفه، سكينا وميسما وأدوات اخرى لا احد يعرف استخداماتها. ويحاول في لحظات التجلي بتر أوصال فاسدة وكيها: يعري في الناس سلوك الرذائل، ويفضح تزلفهم للفضائل.. ينبش بأظافر تجليات الجنون

قروحاً متقيحة تسترها الأكاذيب والأوهام، ويحمل معاول لهدم اعمدة نخر السوس جوفها وان ظل سطحها متوهجا كالجمرة بعد الاستواء. يسخر من التعصب الساذج لغيبيات ابتدعوها هم انفسهم وصدقوها بعد طول اجترار، ثم رفعوها الى منزلة النصوص المقدسة واعتقدوا أن الايمان بها يرقى الى مستوى العبادة! و"له في الجنون طوق نجاة."

وفي فورة "تأزم" مواجع الذاكرة تضطرب دواخله! تتداعى نزعات باطنية، وملاحم نضال دفاعا عن قضية او مبدأ مجروحة. مقبورة بساديات حجاجية. ويزج العقل في سعير بوتقة ارهاصات تجارب قديمة انفلتت من مدارها الآدمي ولبس بعضها جناح الملائكة والآخر منها ارتدى لبوس الشيطان! يتقاذفه اعوجاج الذاكرة واستقامة الجنون.. تتقاطع مسارات الحاضر والماضي ويستعصي عليه فرز الواحد عن الآخر او إبراز لحظة عقل حفرت لها باصابع مدمية اسماً وتاريخاً !

يداوي احباطات الذات وخذلان الناس بشق طريق آخر يعود به الى ازمنة غابرة تكومت بيارق عنفوانها وطال انتظار راياتها في مخازن جمعت ـ بين ما جمعت ـ نبالاً وسيوفاً يرجع تاريخ بعضها الى زمن الراشدين، وأخرى الى زمن قريب ترفع للتطريب والعبث، فينتزع من بينها واحدة سوداء تحمل ختم الايوبي، ويعود بها للاحتفال بانكسار سطوة القهر على اجساد المستضعفين وجوع الفقراء .

وثمة حالة يستثني اهل السوق ورواده العُصاب في زباد، فيغدو كأنه لم يكن بينهم بالامس مجنونا. ففي اليوم التالي لخطاب الزعيم يتحول زباد الى خطيب مفوه وسياسي محنك، حين يقف فوق تبريزة أو صندوق بضائع، وان لم يجد مكاناً مرتفعاً في وسط السوق لا يتردد في تسلق جدار أحد الدكاكين ليسمع صوته القريب والبعيد .

وفي هذه المناسبة يتجمع البائعون، والمتسوقون، والمارة، والحمالون، والمتسولون. ويعيد زباد الخطاب بدقة يقف عندها من استمع اليها ليلة الامس مدهوشين، ويرفقها بشروح لمن تستعصي عليه معاني مفرداتها، وهو يدرك ان جل مستمعيه لا يملكون اجهزة مذياع، أو جذب مستمعين آخرين آثروا الابتعاد عندما صعب بعض الامر عليهم او آخرين انشغلوا عنه بشراء او بيع .

وبعد ان يكمل الخطاب، يواصل الحديث مأخوذاً بتجمع الناس، دون وضع اعتبار للزمان والمكان، عن الفقر والامراض في افريقيا، ويسهب في المعاصر من القضايا: بناء السد العالي، ثورة جنوب اليمن وتقاتل الاشقاء في شماله، ازمة الصواريخ الروسية في كوبا، واخرى سواها من احقاد وحروب صغيرة ونزاعات. ويعرج دون ربط على قضايا اخرى لا احد يعرف مدى صلتها بالواقع والحقيقة!

استعصى على كثير من المثقفين، الذين عادوا من الخارج واقلام "الباركر" المذهبة تزين صدورهم، وتتوج قصة "البكلة" رؤوسهم، تفسير قدرة زباد على حفظ خطاب الزعيم وتحليله بدقة.. خاصة اذ ظنوا ان عقل الرجل لوثه الجنون!

الشمروخ

بعد ايام من المراقبة عن بعد قرر الصبي الاقتراب من وسط السوق .وان كان ثمة ما جذبه لتلك الخطوة والاقتراب اكثر من مركز الحركة، تلك الرائحة اللذيذة النفاذة للاطعمة والحلويات التي كانت تعرضها البائعات مكشوفة في صوان ضخمة !

عند صف البائعات وقف ينظر برغبة فضحتها رطوبة شفتيه مترددا بين الشراء او الاكتفاء بالنظر فقط .

امام الصينية التي وقف بجوارها الصبي، جلس رجل تبدو عليه وجاهة وان افسدتها جلسته تلك وهو يمسك قصاصة ورقة جريدة قديمة ـ بدت اقرب الى السواد منها الى البياض بفعل حبر الطباعة ـ يضع فيها ما يختاره بنفسه من اللقيمات التي يقلبها في يده مرات ومرات، فيعيد واحدة لان جانبها احترق اكثر من وجهها او لأن جزءا منها بدا ابيض دليلاً على عدم استوائها من الداخل، والبائعة تتذمر وترطن لجارتها معبرة عن سخطها من هذا الزبون الذي اصر على اختيار ما يريده ولم يترك لها المهمة على غرار معظم الزبائن.

التفت الرجل، اذ احس باقتراب الصبي من المكان، ومد له عدداً من اللقيمات. تردد اولا ثم اخذها خجلا بعد ان دسها الرجل قسرا في يده. وعندما انتهى الرجل من اخذ ما اراد مسح يده في طرة ازاره، وفي غمرة انشغال الصبي بأكل اللقيمات اشار الرجل اليه وقال للبائعة :

•خلي ولدي عندك حتى ارجعلك بفلوس!

ذهب ولم يعد!

انهى الصبي اكل اللقيمات، وعندما تحرك عائداً الى التبريزة وثبت البائعة وامسكته من يده فسحبها وهو يكيل الشتائم لها ثم ركض الى تبريزة الغربي وهي تجري خلفه.. ترطن بكلام أثار موجة من الضحك بين البائعات الاخريات حتى وصل الى التبريزة .

موقف كان لا يخلو من الطرافة. تجمع جيران الغربي يستوضحون الامر !
قال لها الغربي وهو يهز رأسه :

•ضحك عليك ود حبّاب يا رهيمة! هذا صبيّ لا هو ولده ولا يعرفه من اساسه!

واوضح لها انها وقعت في مقلب من مقالب ود حبّاب!

مقلب ود حبّاب ترك في نفس الصبي احساسا بالذنب، فهو كان طرفاً فيه وان تعرض للتضليل كحال العجوز رهيمه! وتكفيراً عن ذلك الذنب دأب الذهاب الى رهيمه دون سواها من البائعات كلما طلب منه احد من بيتهم او الجيران او من "اهل "البرزة شراء لقيمات او تبغ. وهكذا خلق ألفة معها. هي ايضا لم تبخل عليه عندما أخذ يتردد عليها لشراء الطلبات ببعض اللقيمات او القشاط !

واصل الصبي في الايام التالية جولاته الاستكشافية لما تبقى من زوايا سوق المسباخ! احداها قادته الى محل اثار فضوله.. تنبعث منه روائح طعام ممتزجة بدخان السجائر وثرثرة الزبائن.. ومعها ياتي الى السمع من جهاز "فونوغراف" غناء مطرب كان صوته نشازا وهو يضرب على العود كما يضرب المزروقي القطان قطناً بالياً بمدق خشبي لتليين ملمسه وصنع وسادة مهترئة او

فراش بال لصياد لا تسمح موارده شراء فراش جديد .

تردد أولا، لكنه يعلم انه اذا لم يتجرأ على الدخول سيظل المكان مسكوناً بخيالات من صنع رأسه.

ظل واقفاً امام مدخل المقهاية. استرق النظر والسمع والشم لما يدور داخلها! في غفلة الاستسراق تلك صدمته يد احد الخارجين. رفع نظره. شاهد فتاة تتوسط مجموعة شباب اعمارهم تقترب من العشرين .

طغى عليه الفضول. تبع المجموعة مدفوعاً برغبة لمعرفة سر تلك الفتاة، التي بدت مختلفة عن سواها من فتيات المدينة، الى مكان منزوٍ خلف المقهاية !

هناك تحلقت المجموعة حول بساط فرشوه على الارض لا للجلوس وانما للعب "الورق". تولت الفتاة اولاً توزيع الورق وكانت تبل اصبعها بلعابها بحركة ماهرة كلما صعب عليها فرد الورق عن بعضه بعضاً. بعد مرات من التوزيع ورمي الورق صرخ احدهم وهو يضرب البساط بورقة "كابا"، ثم جمع القطع النقدية التي رموها قبل ان يبدأ توزيع.

في اليوم التالي ـ وفي الموعد نفسه ـ جلس الصبي في مكان اقرب من مكان الامس. وصلت المجموعة، لكن اللعبة هذه المرة اختلفت! انتقى كل واحد منهم حصاة صغيرة على شكل قرص مسطح واملس بحجم راحة اليد. وقفوا بالدور على بعد بضعة امتار، تزيد او تقل، من حفرة صغيرة بسعة قدح الشاي .

بدأ كل واحد منهم رمي قطعة نقد معدنية باتجاه الحفرة. بعد انتهاء ذلك جمع اللاعب الذي كانت قطعته الاقرب الى الحفرة قطع النقود وعاد بها الى حيث وقفوا سابقاً ورمي حفنة النقود باتجاه الحفرة. صوبَ الحصاة نحو قطعة حددها كهدف لحصاته. وتتابع افراد المجموعة على المتوالية السابقة.

عرف الصبي ان اسم اللعبة "غويزية". وهو مشتق من قطعة نقد معدنية قديمة تسمى "الغازي". ورغم نسب اللعبة الى الغازي، الا ان البيسة تستخدم للعب .قواعد اللعبة هي ان يحذف صاحب الدور القطع نحو الحفرة، ثم يحدد واحدة (الشبح) يصوب حصاته نحوها، فان اصابها دون ان تلمس الحصاة قطعة اخرى يفوز بالدور ويأخذ القطع كلها، اما اذا فشل فله ان يأخذ ما دخل الحفرة من القطع عندما رماها قبل تصويب الحصاة.. وهكذا دواليك.

اعجب الصبي باللعبة. ادهشته سيطرة الشمروخ (اسم الفتاة) على افراد المجموعة. اقترب منهم شيئا فشيئا، حتى اصبح وجوده مألوفا بينهم، لكن لم يدعه احد الى اللعب، رغم ان وجوده لم يكن يضايقهم خوفا من اهل يتهمونهم بافساد اخلاق ابنهم وجره الى لعب القمار .

وكان يأتي وفي كيسه بعض قطع النقود استعداداً اذا دعي اليها أو في غياب احد اعضاء المجموعة وطلبوا منه مشاركتهم .

ظل الصبي يأتي الى المكان يومياً ويتدرب في غيابهم على رمي القطع داخل الحفرة وتصويب الحصاة نحو الشبح. ولعل معرفته الرماية ببندقية السكتون ساعدته على اتقان اللعبة بسرعة وكفاءة !

سبقهم يوماً الى مكان اللعب وجاءت الشمروخ اولا فوجدته منهمكاً في تصويب الحصاة إلى الشبح وهو يغمض عيناً ويفتح اخرى محاولاً تقليدهم. تركته يواصل التصويب حتى اصاب الشبح .

كالعاصفة احتضنته الشمروخ ..اعجاباً بمهارته رغم حداثة سنة. طوقته بذراعيها. يتذكر انها سألته: كيف تعلمت رمي الشبح؟
فرد وعلى وجهه ابتسامة فيها خجل وبعض من خبث: تعلمت الرمي بالرصاص لا بالحجر!
فقالت وهي تدغدغ بطنه: لا بد انك كنت صياداً ماهراً، فهل تعلمت صيد الارانب اولاً؟
وفي صوته بحة، قال: واصطدت الغزلان والضباع ايضا!

وصل بقية افراد المجموعة ودعته الشمروخ الى اللعب معهم، لكنها اشترطت ان يكون لاعباً "متدرب" فقط ـ أي انهم لن يأخذوا نقوده! احتج عريفان على استثناء الصبي من الربح والخسارة، لكنها وبخته بصوت عال. وسمع وهو يرد عليها ممتعضا "بنت القحبة". وعندما اندفعت بعصبية نحوه اعترضها عتر لتهدئتها.

ادار الصبي ظهره مبتعدا عن المكان خشية ان يكون وجوده مثار خلاف. اطبقت يد الشمروخ على كتفه. سحبته بدعوة فيها من التهديد والترغيب.. فكان لها ما شاءت !

سعد الصبي بتطور علاقته بالمجموعة وان كان بعضوية متدرب، وحين حاول مرافقتهم بعد اللعب نهرته الشمروخ وطلبت منه ان يعود الى بيته والا فانها لن تسمح له باللعب في المرة القادمة .

غياب الصبي عن التبريزة آثار قلق الغربي. ظن ان مرضاً او سوءا اصاب صديقه الصغير، لكنه اكتشف عندما التقى عم الصبي ان الاسرة كانت تعتقد انه يأتي الى التبريزة، لذلك كانوا مطمئنين لذهابه المستمر الى السوق.

وكان لا بد من البحث عن سر غيابه والمكان الذي يتردد عليه يومياً!

الصدفة وحدها كشفت سر انضمام الصبي الى مجموعة الغويزية! ففي وقت سابق من ذلك اليوم تذكر الغربي ان محيّل الشاوي ذكر له انه تعرض لسرقة منظمة قبل يومين من كيس يتحزمه. "ويحرص على عدم خلعه حتى اذا ضاجع زوجته" ـ حسب تعليق الغربي .

وتابع، بعد ان توقف وأخذ نفساً من سيجارة خطفها من يد الغربي قبل ان يضعها في الصينية، ان شابين من السفهاء افتعلا امامه خناقة وتشابكا بالأيدي ولم يجد مفراً من فض النزاع بينهما .

ويظن ان احدهم ادخل يده في الكيس اثناء انشغاله بالفصل بينهما وسحب عدداً من القروش دون ان يشعر بذلك! وذكر ايضا انه شاهد معهم فتاة سافرة الوجه وصبيا بدوياً .
الغربي كذب القصة وقال بعد ان ترك محيل المكان وهو يقهقه:
•ود الحرام طول القصة وعرضها..على شان اسامحه عن قيمة السيجارة !

ربط الغربي بين قصة محيّل وغياب الصبي، قال وهو ينظر الى العم:
•الولد ما تغيب عن السوق لكنه غير مكانه !

وباشارة من يده طلب من العم ان يتبعه. وخلف المقهاية وقف الغربي والعم مذهولين وهما يشاهدان الصبي يرمي الحصاة ويصيب الشبح!

ظلت صورة الشمروخ عالقة في ذهن الصبي لسنوات كثيرة قادمة. وفي محاولاته منه لتفسير موقف هذه الفتاة كتب يوما في سنوات شبابه رسالة لصديق كان يكتب في مجلة اسبوعية الخاطرة التالية برجاء ان يجعل منها موضوعاً مناسبا للنشر. التالي بعض ما جاء فيها :

"شكلت الشمروخ في ذلك الوقت ظاهرة اجتماعية مثيرة للجدل. ويصعب المرء ان يأتي على ذكرها بطريقة عابرة. انها ظاهرة "تستحق" لا ..بل يجب التوقف عندها! فهي كما ذكرت لك سلفا قلبت موازين التقاليد والاعراف رأسا على عقب !

السؤال الذي يبادر للذهن هو: هل كانت الشمروخ فعلاً تدرك ان ممارستها تلك؛ بكل جرأتها وخروجها على النظم الاجتماعية الراسخة والتقاليد القبلية المصانة بذهنية التحريم، والتي لا مجال لمناقشتها ناهيك عن الانفلات من مدارها؛ تنطوي على محاولة لتغيير دور المرأة؟

وهل كانت تتمتع بقدر من الوعي الاجتماعي يجعل من فعلها ذلك دعوة الى هدم ثوابت ترسخت في عقل كليهما: الرجل والمرأة؟

والحق ان كشف رؤية تلك الفتاة لمعنى تمردها لا يمكن استخلاصه من مجموعة مواقف تفرضها احيانا اعتبارات كثيرة، لأنها، ايضا، في احيانا اخرى تتخذ مواقف مبتذلة ليس لها غاية سوى استفزاز الرجال وتأليبهم عليها وهي بتلك المواقف تنفي وجود وعي او رؤية تفسر تمردها على تلك التقاليد!

فهي لم تكتف بالحضور الى السوق سافرة الوجه بصحبة مجموعة من الفتيان تلاحقهم "دونية السلوك ووضاعته"، بل صعدت من توتر علاقتها ببعض رموز السوق الذين ظلوا يمقتون وجودها بينهم منذ حضورها بتدخين السيجارة علنا بعد ان ظلت تتعاطاها سرا مع اصحابها خلف المقهاية .

وخطت خطوة اخرى "جريئة" حين ابتاعت لنفسها سكيناً ولوح تقطيع وانتقت لها مكانا وسط ساحة مقيطعية الصيد ودخلت منافسة لرجال احتكروا تلك المهنة !

وهي بهذا اتخذت مهنة من المهن المحرمة ليست على النساء فحسب بل وعلى فئات من سكان المدينة ايضاً. واذ اعترض الباعة، كان لسانها كسكينها التي ظلت تلوح بها تجاه كل من أبدى اعتراضاً أو تذمراً .

وسرعان ما تراجع هؤلاء عندما أخذت تنشر "غسيلهم الوسخ" وهي تشهر بنسائهم وتنتقص فحولتهم فلاذوا بالصمت ولو لحين حتى يجمعوا أشلاءهم التي افتعل فيها لسانها الجز والتقطيع !

وعندما عبر أحدهم عن استيائه من بذاءة لسانها، قائلا:
•تحشمي يا فاسقة وإلا قطعت لسانك، كانت يدها اسبق من لسانها، حين قذفت قطعة سمك في وجهه، و"ردت الصاع صاعين:"
•زوجتك هي الفاسقة يا نذل. واستبد بها الغضب وكادت سكينها تجرح الشايب ود مطر الذي حاول منعها من الاشتباك معه".

—
طرة: طرف الإزار .السكتون: نوع من بنادق الصيد الخفيفة، ويستخدم كثيرا لتدريب الصبيان على الرمي .مقيطعية ومفردها مقيطعي: باعة السمك بالقطيعي.

ود مطر

في البرزة ختم ود مطر حديثه بعد أن نقل لمجموعة البرزة تفصيل الحادث، وهو لا يخفي سروره من موقف الشمروخ واذلالها لمقيطعية الصيد لغاية في نفسه :

•والله ما يجيبها إلا نسوانها .

يعزى موقف ود مطر من "مقيطعية الصيد إلى خلاف دائم بين الصيادين وباعة السمك في المسباخ. فأهل البحر يسهرون الليالي يصارعون اسماك القرش والجيدر؛ بينما تنحصر مهنة باعة السمك على شراء الصيد من المزاد وبيعه بالقطيعي دون مشقة أو تعب و"تكديس الغوازي" كما يقول عنهم ود مطر، أو شيخ الصيادين كما يحلو له أن ينعت: وهو عجوز طويل القامة، نحيل الجسد، منحني الظهر، وفي رجله عرج ـ يفاخر به ـ من عضة قديمة من "ذيبة ."

كان ترك البحر بعد أن أمضى جل سنوات عمره صياداً.. فصحته لم تعد تتحمل مكابدة البحر. جلس فترة في البيت .ازداد عصبية واحتد مزاجه وعلا صوته.. يسمعه الجيران يسب زوجته. واطلق العنان للسانه فلا يسلم منه احد حين لا يجد في بيته من "يفش ضيمه فيه."

آثر الذهاب إلى السوق. يمضي معظم ساعات الصباح متنقلاً بين تبريزة الغربي وصواني بائعات الحلويات والتبغ. يشم اعواد التنباك ويفند جودته ويرشد الزبائن على الطيب منه .

ويتجول طويلاً بين باعة السمك رغم الود المقطوع معهم! لكنه، رغم ذلك، كان يمضي بينهم متفحصاً قطع السمك يحذر الزبائن من الفاسد منها، وان كان يفعل بصوت خافت حتى لا يتعرض لعداوتهم المباشرة .

وقبل الظهر يعود إلى بيته، وتحت ابطه عود تبغ وبيده ربطة برسيم، وخلفه قطيع من أغنام سائبة تتزاحم على سحب اعواد البرسيم واحدا تلو الآخر دون اكتراث منه!

وكان إذا خرج من صلاة العشاء جلس وسط الحوش يدخن الرشبة. يمسك قصبتها. يأخذ النفس الأول. ثم الثاني والثالث. تنتابه موجة سعال .تكتم نفسه فترة. تريح جسده من الهواء الفاسد، فيسقط مغشيا عليه! يخيل لغير أهل بيته انه فارق الحياة، لكنه يعود كما كان يفعل دائما حين يغوص في البحر لفك شباك الصيد إذا علقت بالصخور أو مخلفات سفن "الإنجليز."

قال لزوجته، إذ سألته أن يكف عن تدخين الرشبة أو يقلل منها على الأقل رأفة بصحته:

•إذا توقفت أنت عن مضغ التنباك !

صمتت ولم تأت على تلك السيرة مرة أخرى.

وحين طلب منه ولده أن يكتفي بالبوري ـ الأخف ضرراً ـ عن الرشبة، رد بحدة وهو في نوبة السعال تلك:

•على شرط أن تستبدل زوجتك الثرثارة هذه ـ وهو يشير إليها بقصبة الرشبة ـ بواحدة أخرى بكماء إذ أنت حقا تروم راحتي !

—

الجيدر: سمك التونا. غوازي: مال. ذيبه: نوع من اسمك القرش. رشبه: ارجيلة التدخين

الحرف والعصا

حادثة الغويزية أثارت مخاوف الألم وازدادت رعباً إذ عرفت أنها ـ أي الحادثة ـ ارتبطت بفتاة. وتفادياً لمشاكل أخرى قد يقع فيها ولدها، لم يكن في وسعها سوى أخذه إلى مدرسة الحرف لدراسة القرآن .

وهي إن تفادت الموضوع من البداية، تعلم انه سيتعذر ضبطه وانصياعه للشدة التي عرفت بها المعلمة، إذ يصعب على من تربى على الفطرة في بيئة لا حدود لها العيش تحت ظل قوانين أو سلطة. ولعل هذا الاتساع هو الذي صاغ في نفسه التوق الدائم إلى الانطلاق، والخوف من الجدران والحواجز! وغني عن القول أنها بيئة تختلف نواميسها اختلافاً شاسعاً عن قواعد المدينة !

الليلة. تلك التي سبقت يوم الذهاب إلى المدرسة هيأته الأم بطريقة لم توفق في طمأنته، قالت له:
•نصيبي عوض تراه معلمة الحرف تختلف عن معلمة القرآن في الوادي، والمدرسة هنا غير هناك!

ولأنه استعصى عليه إدراك ما عنته أمه لجأ إلى عمته، التي لم تخف رفضها لإدخال الصبي مدرسة الحرف منذ أن سمعت بنية الأم، فزادت هواجس الخوف لديه اكثر فاكثر من شدة المعلمة الحرف وأسلوبها في التعامل مع تلاميذها، وسمعها تقول لامه:
•هذه حرمة شديدة وما تخاف الله وحرام عليكم تاخذو صبيٌّ عندها. وأردفت بعد أن لاذت بالصمت قليلاً :
•لكن إذا كنتو مصرين على عذاب ولدكم فاحسن ترضفو له ثياب وتغلظوها. وهيه صدق من سماها "ليس له!" فليس في قلبها الرحمة التي فطر الله عليها عبادة .

"ليس له" لقب أطلقته نساء الحارة على معلمة الحرف، وهو مستمد من درس تمهيدي اشتهرت بغنائه بأسلوب سلس يسهل على التلاميذ حفظ الحروف الهجائية وتحديد المنقط منها وعدد نقاطها عن سواها، ويأتي مطلعة على النحو التالي "ألف ليس له، والباء تحتها نقطة، والتاء فوقها نقطتين، والثاء فوقها ثلاث نقط، والجيم تحتها نقطة. حاء ليس له، الخ".
سكنته المخاوف طوال الليلة تلك. لا يدري إذا نام أم لا! وعندما أيقظته أمه في الصباح حاول أن يوهمها بمرضه علها تعفيه عن الذهاب إلى المدرسة، لكن العذر لم ينطل عليها.

"اختلاف" ليست المفردة المعبرة عن الفرق الشاسع بين المعلمتين، وتباين المكان كان اشد. أثارت المعلمة الحرف في نفس الصبي الرعب قبل أن تثيره المدرسة، فعندما فتحت الباب أطلت عصاها قبل أن يطل وجهها، وحين سحب يده وجلا من يد أمه جاءه رأسها محشورا بين فردتي الباب ليبث الرعب في كامل أوصاله وتوتدت رجليه في الأرض .

وإذ فتحت الباب مرحبة بالأم والتلميذ الجديد، تمنع ساعده في ذلك تصلب قدميه وعجزه عن رفعهما على عتبة الباب، فما كان من الأم مدعومة بهز خيزران المعلمة إلا أن تقتلعه اقتلاعاً.

مدرسة الحرف ليست سوى غرفة طويلة معتمة لا نوافذ لها ولا فتحات غير باب التصقت إلى جانبه تكية المعلمة. تكدس التلاميذ ذكورا وإناثا ـ لا فرق ـ يفترشون أرضا تحولت إلى وحل تنبعث منه رائحة كريهة اختلطت فيها إفرازات الصغار على اختلافها! وفي ركن مظلم علق صبي داخل جراب مثقوب عقاباً له على تقاعس أو مشاغبة.

وعندما استعاد توازنه اثر الصدمة الأولى، لم يتوان في إعلان رفضه للمدرسة فسحب يده من يد أمه وولى هاربا من الباب الذي غفلت المعلمة وصده في غمرة "ترحيبها" بالمنضم الجديد .

في اليوم التالي سحبته أمه مضطرة إلى المدرسة رغم توسلاته المشفوعة باغواءات أفضلها وعدا بشراء المانجا الحصرم الذي كانت تتوحم عليه، وان كان في غير موسمه .

سلمته أمه للمعلمة وطلبت الأخيرة من عريف المدرسة تولي أمره حسب الإجراءات المعهودة لمن في سنه وحالته ـ خاصة وان تجربة الامس وضعته في قائمة المشاغبين حتى قبل أن ينتظم في المدرسة! لعل احدهم ذلك الذي كان بالأمس يبصبص من داخل الجراب بعين من ثقب ويحشر لسانه إلى الخارج من ثقب آخر!

حاول سحب يده من يد العريف وهو ينظر إلى أمه والى خيزران المعلمة التي واصلت هزها أثناء حديثها مع والدته، لكنها ظلت تشيح وجهها خشية أن تضعف وتطلب من العريف أن يعامله برفق .

أحس لأول مرة أن أمه تخذله ولم تقف إلى جانبه كعادتها دائما عندما يتشاجر مع أخواته .

سحبه العريف وعبر به الصفوف المتراصة إلى الركن المقابل لزاوية جراب العقاب دون اكتراث لتعثره أو اصطدامه بصفوف التلاميذ، وحشره فيها وجلس جانبه بطريقة لا تتيح له التحرك ناهيك عن الهرب .

النوع الأول من قانون الردع "حشر التلميذ المشاغب في الزاوية المقابلة لركن الجراب" تذكرها الصبي بعد سنين من تلك الواقعة وكتب عنها قصة قصيرة تقوم على حكاية شعبية ـ سماها "سبال الحداد."

"اتخذ حداد سبالا يعاونه في شغله: مهمة السبال كانت النفخ في قربة اللهب لابقاء الجمر متوهجا أثناء انهماك الحداد في تسخين الحديد. السبال ـ وكحال الناس ايضا ـ سأم النفخ ووجد أن التعرض للفتيات متعة تعيد إليه حيويته ونشاطه، لكنه تمادى واستغل تساهل سيده، فكان إذا رأى حسناء قفز من مكانه واخذ يصدر صوتا كالصفير يرفقه بحركات ماجنة .

قابل الحداد هذا التمرد باللين في البداية.. خاصة وان إراحة السبال من وقت إلى آخر كانت تدر نفعاً، لكن واجهه، بعد تماديه، بشدة لم تخل أحيانا من قرعه بملقاط الجمر الحامي .

تسربت إلى داخل رأس السبال فكرة الهرب بعد أن انتشرت عليه حروق الملقاط ففر أثناء انشغال الحداد، ولجأ إلى خرائب على طرف المدينة مسكونة بالكلاب الضالة!

علم الحداد بمكان السبال فداهمه ومجموعة من اهله، وقبضوا عليه وزعيم الكلاب. وكان الجزاء بحجم الجريمة: إعدام الكلب ذبحا بالسكين وسلخ جلده أمام عين السبال، واتخذ الحداد من جلد الكلب فزاعة علقها على جدار الماحة مقابل المكان الذي يجلس فيه السبال أثناء النفخ، ثم أعاد السبال إلى مزاولة عمله .

ومنذئذ دأب الحداد على الإشارة بملقاط الجمر إلى جلد الكلب المسلوخ كلما أحس بتكاسل السبال أو انشغاله بمتابعة المارة أمام باب الماحة. لم تدفع الفزاعة السبال إلى التخلي عن ميزة التفكير فحسب، بل جعلته يتمنى لو يدخل الحداد الملقاط في رأسه بدلاً من قرعه وينتزع ذلك الجزء الفاسد المحرض من جسده الذي تسبب في سلخ الكلب ."

يتذكر بعض أقارب الصبي أن الإجراءات التي اتخذت لتطويعه وغرس عادة الانضباط واحترام نظام المدرسة، سواء من قبل المعلمة أو من جانب أمه، لم تفلح كثيرا في "تهذيب" سلوكه، وتعذرت السيطرة عليه سواء بالترهيب أو الترغيب .

وداومت الأم على إحضاره بنفسها كل يوم إلى المدرسة وتسليمه إلى العريف يداً بيد حتى جاء يوم تركته يرافق صبيان الحارة عندما أقنعها أن مرافقته إلى المدرسة أصبحت مثار استخفاف زملائه .

وتحت تأثير اساليب العقاب التي كانت معلمة الحرف تعامل بها المشاغبين والمتقاعسين عن الحضور ..اقلها رمي حفنة من الحصحيص بتصويب دقيق يصيب الهدف في الرأس وتلحق بمن يجاوره اصابات تتفاوت شدتها بحسب جرم المستهدف ـ وهي طريقة كفلت للمعلمة تعاون التلاميذ في كف المشاغب او التبليغ عنه تفادياً لاسلوب العقاب الجماعي .

توج الصبي رفضه، اذ تأكد ان الجراب سيكون الخطوة التالية لتطويعه، بالهروب من المدينة ومرافقة قافلة اعترض طريقها لمصاحبتهم الى وادي راك حيث جدته.

اثار غياب الصبي، بعد عودة زملائه، ذعرا بين اهله.. والنساء منهم خاصة! ارتفع صوت العمة وهي تؤكد انها كانت مصيبة فيما توقعته سابقا. قالت، وهي تطبق يداً على يد لرسم صورة العقاب الذي يلاقيه الاطفال على يد المعلمة الحرف:

•هذه نتيجة الضرب. ثم تابعت، بعد ان هزت رأسها سخطاً :

•والله لوصار لعوض مكروه ما يردني احد عن فتق عيونها! وتابعت حركاتها العصبية وهي ترمي حبات الحصيص الواحدة تلو الأخرى وكأن صورة المعلمة تتشبه لها في المكان الذي تصوب عليه الحصى.

عاش افراد الاسرة ذلك اليوم قلقين على مصير ولدهم حتى وان عرفوا، ما اكد ظنون الام، انه عبر الخور شرقاً. فقد ذكر لهم صبي العبرة انه نقل الصبي الى الضفة الشرقية، وأفادهم ايضاً ان قافلة خرجت من المدينة متجهة في در ب الوادي، لكنه لم يؤكد ان كان الصبي رافقها ام انطلق وحيداً! وفي مساء اليوم التالي وصل طارش من الوادي ارسلته الجدة لطمأنتهم بوجوده معها وانها ستبقيه عندها بضعة ايام.

—

نصيبي: مفردة بدوية يقولها الاقارب للاطفال تحببا .ترضفو: ارتداء اكثر من ثوب واحد لتخفيف أثر ضرب الخيزران. تكية: مصطبة صغيرة تتسع لجلوس عدد قليل من الناس. ماحة: محل الحدادة والصياغة. العبرة: قارب للعبور ما بين ضفتي الخور

المقراع

لم يقتصر رد الفعل الذي تركه هروب الصبي على الجزع الذي يمكن ان يواجهه وهو وحيد في طرق مقطوعة ووعرة وانما آثار لغطاً في دار الاسرة واشترك فيه كل فرد وكاد يتحول في بعض جوانبه الى صدام بين الام والعمة .

الام ادركت انه لا جدوى من قسره على حضور دروس المعلمة الحرف، لكنها عالجت الامر ـ بعد عودته من الوادي ـ من زاوية اخرى علها تنفع في "ترغيبه" لحضور دروس القرآن، فرتبت لتوثيق علاقته بقريب في مثل سنه مشهود له بالمثابرة على دروس القرآن .

وبالفعل تحقق في النهاية ما رمت اليه. اصبح ولدها دون ترهيب او ترغيب تلميذاً منتظماً الى حد كبير لولا تغيبه احياناً دون مبرر عن الذهاب الى المدرسة!

توثقت علاقة عوض بصديقه الجديد محمد. اصبحا يشتركان في كل انشطتهم اليومية.. سواء الذهاب الى المدرسة او اللعب او مرافقة العم عبد الله، والد محمد، الى ميناء الخور لاستقبال سفينة الاسرة التي كان يشترك في ملكيتها والده ويتولى في الوقت نفسة دور النوخذه في اسفارها ـ خاصة الطويلة منها.

وكان الصبيان يمضيان بعض الوقت على ظهر السفينة، يتابعان افراغ حمولتها من المواد الغذائية ومواد البناء والمحروقات حسب الوجهة التي قدمت منها. يقضون الوقت هناك في صيد السمك باستخدام السنارة وخيوط النايلون حيث يساعدهما البحارة في وضع الطعم وترديع السنارة .

وبتشجيع من صديقه بدأ الصبي يقترب اكثر فاكثر من البحر. ويتعلم العاب وتسالي صبيان الحارة.

ولان حياة الناس هنا ترتبط وتدور حول الانشطة البحرية بكافة انواعها، فقد تأثرت ألعاب الصبيان ايضا بالبحر ودار معظمها على الشاطئ او داخله حتى، ومن اهمها المقراع، والسيكل، والتوفة واللكد، واخرى كثيرة .

يتذكر الصبي جيدا تلك الفترة من صباه وخاصة مشاركته في ألعاب صبيان الحارة ومنها المقراع .ولعل ما رسخ ذكرى هذه اللعبة هو ذلك الالم الذي تركته ضربة التوفة على ظهره في اول مشاركة له .

تنظم لعبة المقراع اثناء الجزر على الشاطئ، حيث تتوفر مساحة واسعة من الرمل الرطب.. والميزتان ـ المساحة ورطوبة الرمل.. عنصران ضروريان لمزاولة اللعبة على افضل شكل واسمها مشتق من إحدى أدواتها ـ المقراع: قطعة خشبية تشذب من سعف النخل او من قطعة خشب مستطيلة يبلغ طولها نحو 70 سم وعرضها حوالي ست سنتيمترات .اما الاداة الثانية فهي كرة مطاطية تصنع من القماش تشبه كرة التنس الارضي ولكنها اثقل منها قليلا وتسمى بالعامية "التوفة."

يتوزع لاعبو المقراع الى فريقين، وتجرى عملية التوزيع عادة بان يختار اثنان من امهر اللاعبين او اكبرهم سنا اعضاء فريق كل واحد منهما بتسمية اللاعبين بالتناوب بينهما.. حسب تقديره كل منهما لمهارات اللاعب. ويتراوح عدد كل فريق بين ستة لاعبين الى تسعة ـ قد يزد او ينقص حسب عدد الراغبين في اللعب .

يخطط ملعب المقراع على شكل نصف دائرة لها محيط وهمي، ويشكل مركز الدائرة قاعدة القرع/الانطلاق. وعلى بعد نحو 30 مترا على امتداد الشعاع الوهمي من المركز، الذي يفصل الملعب (نصف الدائرة) الى جزءين متناظرين، ترسم دائرة على الارض لا يتجاوز قطرها مترا واحدا تسمى "الهوب."

يبدأ اللعب بتحديد الفريق الذي سيبدأ قرع (ضرب) الكرة، ويصبح الفريق الآخر هو الذي يرميها (الاول يسمى فريق القرع والثاني فريق الجعر). ثم يتجمع فريق القرع عند القاعدة وينتشر فريق الجعر على مساحة الملعب حسب الخطة التي يضعونها وفقا لمهارات فريق الخصم .

ويتناوب اعضاء فريق القرع على ضرب الكرة التي يرميها لاعب من فريق الجعر من مسافة ليست بعيدة وبالطريقة التي تناسب صاحب دور القرع الذي يعطى ثلاث محاولات يحق له خلالها وحسب قوة الضربة وابتعاد الكرة عن متناول اعضاء فريق الجعر وحساباته الركض الى الهوب والعودة .

وينتظر اللاعب، اذا لم يتمكن من الوصول الى الهوب بعد ان استنفذ القرع فرصة ان يضرب زميله الذي يليه في الدور الكرة الى مكان بعيد يتيح له الركض الى الهوب والعودة اذا استطاع لكسب فرصة جديدة للقرع .

وهناك ثلاث حالات يتحول فيها موقع الفريقين بين القرع والجعر، وهي :
اولا، ان يستنفذ كافة لاعبي فريق القرع فرص ضرب الكرة دون ان يتمكن احدهم من الهوب (العدو الى الهوب والعودة الى القاعدة)؛
وثانيا، ضرب الهائب (اللاعب الذي يركض للوصول الى الهوب والعودة) بالكرة في منطقة الجعر (خارج منطقة القاعدة ودائرة الهوب) الا اذا استطاع هذا اللاعب الامساك بالكرة بعد ضربه بها وملاحقة احد اعضاء فريق الخصم وضربه بها او رميها الى احد زملائه يكون اقرب لعضو من فريق الخصم لا يزال خارج منطقتي القاعدة والهوب حتى يضمن ضرب اللاعب بالكرة ومن ثم تجدد الدور (او كما يقولون اعادة الحياة للفريق) ليس لنفسه بل ولاعضاء فريقه الذين لم يتمكنوا من الهوب بعد ان استنفذوا الفرص الثلاث للقرع؛
وثالثا، اذا لقف (امسك) احد اعضاء فريق الجعر بالكرة المقروعة قبل ان تسقط على الارض. كما ان القارع يخسر حقه فيما تبقى له من القرع اذا ضرب الكرة بالمقراع وخرجت عن خط مساحة الملعب (الحول) ـ امتداد قطر الدائرة .

وشهدت مدينة صور في تلك الفترة ـ منتصف الستينات ـ ألعاباً جديدة ارتبطت الى حد كبير بالمواد الحديثة التي زادت وتيرة استيرادها الى المنطقة، حيث يستغل الفتيان بعض مخلفاتها لصنع العاب تناسب الاماكن والساحات المتوفرة لكل حارة، واتسم بعضها بمستوى عال من المهارة، ومنها لعبت السيكل: تركب من عجلة معدنية ثقيلة تحزم بها براميل الوقود لوقايتها من الانبعاج اثناء شحنها بالسفن ونقلها برا على الدواب .

وكان الفتيان يفصلون هذه العجلات عن البراميل ويدهنونها باصباغ متعددة الالوان ويزينونها بقطع معدنية تعطي اصواتا كالاجراس عند دحرجتها. ويشذبون مقوداً او مدساراً لدفع العجلة وتوجيهها من الخشب يثبت في طرف واحد منه غطاء عبوة معدنية، بعد قعره، لا تزيد مساحته على كف اليد. ويدفع اللاعب العجلة بوضع الوجه المقعر من الغطاء على دائرة العجلة من الخارج ثم يدحرجها .

المثير في "السيكل" ـ وهو الاسم الذي اطلقه من اخترعها ـ هي السرعة والقدرة على التحكم في دفعها بين مسارات وعوائق تتطلب مهارات لا تقل عن المهارات المطلوبة الآن للحصول على اجازة سياقة السيارات، وكانت تقام لها ايضا منافسة لتحديد امهر واقوي اللاعبين ويطلق عليها "المناطحة". اذ يقف لاعبان على بعد مسافة حوالي 50 متر، ثم يتحرك الواحد منهما باتجاه الآخر بالقوة التي يستطيعها مصوباً عجلته نحو عجلة خصمه، وعند نقطة محددة يرفع كل لاعب المقبض ويترك عجلته تصطدم بعجلة اللاعب الثاني.. فاذا اصطدمتا يكون الفوز من نصيب صاحب العجلة التي تسقط بعد غريمتها، وان فشلا تكون الهزيمة والخروج من المنافسة نصيبهما!

ونظرا لوقوع منزل اسرة الصبي على شاطئ البحر فقد تعذر عليه تجاهل واحدة من اهم ألعاب صبيان الحارة: برمة الحواسين. البرمة في اللغة تعني "القدر من الحجر" ولكنها هنا من فخار. اسمه يختلف وحجمه يتفاوت طبقا لنوع الاستخدام والمستفيد من استخدامه. فعليّة الناس يسمونه مغلي ويستخدم في منازلهم لحفظ اللبن، في حين يتمتع في بيوت العامة بمنزلة ارفع، فهو قدر الطبخ ويسمى برمه لكن صبيان المدينة، وفي محاولة غير مقصودة ـ الا في ذهن كاتب هذه السطور ـ لتضييق الفوارق الاجتماعية، أوجدوا له غرضا ثالثا عندما حولوه لشرك لصيد الاسماك !

تعلم الصبي كيف يدس الطعم داخل البرمة ويغطى وجهها بقطعة قماش مثقوبة في الوسط، ثم يحفر لها على الرمل في قاع البحر، في مكان لا يبعد كثيرا عن اليابسة، حفرة ويدفنها الى وجهها للايقاع باسماك صغيرة ولذيذة يسمى مفردها حاسون، و كيف يقف على مسافة تتيح له مراقبة حركة الاسماك في المكان المحيط بالبرمة .

وتعلم غناء هزوجة تدعو الحواسين على كافة احجامها ومن كل الجهات للاقتراب من البرمة، وتقول كلماتها "أوه.. أوه حاسون.. أوه باسون، أوه كباريوه.. أوه صغاريوه.. أوه مصانيوه، أوه غربى.. أوه شرقى. أوه.. أوه من رأس الميل الى رأس القاد ادخل من باب واطلع من باب ."

وعلى ايقاع هذه الاهزوجة كانت الحواسين تتجمع فوق وجه البرمة المبرقع. تشكل دائرة شعاعية مركزها ثقب الغطاء واشعتها اجسامها. تتحرك نحو الثقب وتبتعد عنه دون ان تلتفت مترددة بين الرغبة في قضم قطعة من الطعم والشك في حسن نوايا الدعوة.. حتى تأتي احدها الجرأة ـ مأخوذا بالكثرة ـ فيدس انفه قبل ايلاج رأسه وجسده ثم يتبعه من خانتهم الشجاعة ـ كحال الناس على الأرض ـ لكنها ولسبب مجهول تعجز عن الخروج من البرمة. وهنا يبدو ان الشجاعة ليست بالضرورة تقترن بقوة الذاكرة ـ وهذا حال البشر ايضا!

–

المقراع: مضرب التوفة يشذب من سعف النخيل او الخشب. التوفة: كرة تساوي في حجمها كرة التنس الارضي ولكنها اثقل وزنا. كباريوه :الكبار.اصغاريوه: الصغار. مصانيوه: الاقوياء.

دمعة

دأب عوض وصديقه محمد اذا تأخر احدهما عن المدرسة ان يحجز له الآخر مكاناً بجانبه بمد باكورته عرضا لمنع التلاميذ الآخرين من الجلوس فيه. وجاءت فترة غاب الصديق اياماً عن الحضور الى المدرسة، فأبدى الصبي قلقه من تخلف صديقه ليس الى المدرسة فحسب، بل وعن لقائه في ساعات اللعب ايضا. واذ سأل امه عن سر غياب صديقه بلغته انه مصاب بمرض معدي وسيتغيب لفترة طويلة عن المدرسة والخروج من البيت كذلك !

ورغم انه منع من زيارة صديقه، وقيل له ان محمد سوف يغيب لفترة طويلة قادمة، الا انه لم يقتنع ان ثمة مرض عضالاً يمكن ان يغيب صبياً طويلاً عن اللعب خارج المنزل، وظل طوال الايام التالية يمد باكورته في المدرسة خوفاً ان يظهر صديقه فجأة ولا يجد مكاناً خالياً له .

معلمة الحرف وإن أبدت تعاطفا مع الصبيين الا انها لم تظهره علنا خوفا من ان يكتشف التلاميذ بعضا من جوانب انسانيتها، ولكنها سمحت للصبي بمزاولة لعبة الحجز .

واثناء عودة الصبي يوماً من المدرسة، احس بهدوء مخيف يطبق على الحارة الا من اصوات بكاء خافت يتسلل من نوافذ المنازل القريبة من بيت اسرة صديقه على طريق المدرسة. وعندما دخل المنزل استقبلته العمة بدموع افقدتها النطق، وعرف على نحو ما ان صديقه توفي بعد ان استشرى مرض الجدري في جسمه كله، وعجزت أدوية ومراهم الشايب اسماعيل عن شفائه او وقف استشرائه.

ورغم يقينه بوفاة صديقه، ومن اليوم الاول، الا انه تجاهل حقيقة الموت وعبر عنها باشارات عديدة منها مواصلته مد الباكورة في المدرسة. وكان يسمع من قبل ان فلانا مات وآخر توفي، لكن وقع غياب صديقه وتأثيره على نفسه اعطى للموت معنى آخر لم يعرفه من قبل!

ويذكر اقاربه انه مر بازمة نفسية حفرت اظافرها جرحاً غائراً أبى ان يندمل واستشعرت امه خطر معاناته عندما اخذ يهلوس في نومه وينهض وقطرات العرق تسيل من وجهه! كف عن المدرسة واحجم عن الطعام الا ما يسد الرمق، وعجزت "قراءة " الشيخ سعيد في الماء او"ماء وضوئه" عن شفائه، ولم تفلح تعاويذ معلمة كوكب بنت اسماعيل واحرازها في اعادة الصبي الى سابق عهده. ولم يكن امام امه سوى العودة به الا حيث بدايتة الاولى ـ الوادي!

سوق المسباخ

في العام التالي قرر والد الصبي وعمه فتح دكان لبيع المواد الغذائية ـ لا سيما المعلبة منها. ونظرا لانشغال والده بتجارته البحرية وقيادة سفينة الأسرة، تولى العم إدارة المحل. وإذ تعذر إعادة الصبي إلى مدرسة الحرف بعد الحالة النفسية التي اصابته اثر وفاة صديقه، اصبح الدكان مدرسته الخاصة وعمه معلمه الخاص، فأكمل تعلم القراءة والكتابة وبدأ يأخذ دروسا منتظمة في الحساب ايضا. وتعلم المهارات التجارية كالمفاصلة وتسجيل الديون وجرد البضائع ومراجعة الحساب اليومي، واصبح فيما بعد يعاون عمه في عملية البيع حتى اثناء غيابه !

أتاح له حضوره المستمر الى الدكان التعرف اكثر على السوق ـ بجزئيه المسباخ وسكة البنايين. كان الاول يتميز بساحة مفتوحة تأخذ شكلا مربعا تحيط بها ثلاثة جدران تتوزع فيها الدكاكين المبنية بالحجر والطين والصاروج، ويعج باصحاب المهن المختلفة والباعة ..سواء الدائمين او باعة السلع الموسمية والمتجولين والحمالين، فضلا عن السقاة والمزارعين بحميرهم المحملة بقرب الماء والمنتجات الزراعية التي ترد الى المدينة من بلاد صور .

ومن زوايا سوق المسباخ الاربع تنطلق الطرق المؤدية الى الاحياء الرئيسية في المدينة، ويمتد بعضها الى البلدات الخارجية كالعيجة والشرية وسنيسلة وبلاد صور. وتمتد على طول جدران سوق المسباخ محلات ودكاكين تعرض مواد مختلفة ويزاول اصحابها انشطة تجارية وحرفية مكملة لبعضها البعض، وتتجاور حسب نوع البضائع او الحرف. فالمواد الغذائية في جهة وورشات النجارة ومخازن الاخشاب في جهة اخرى، ومحلات الخدمات والحرفيين كالحلاقة والخياطة والصياغة وتصليح الادوات المنزلية تحتل جانبا من السوق، بينما تتجاور التباريز الكبيرة التي تقدم ماء الشرب والسيجارة والتبغ، وتشغل دكاكين معدات السفن وادوات صيد السمك مكانا آخر من المسباخ .

يتوسط دكان الاسرة الجدار الشمالي والى الشرق منه دكان عبد الله النافع الذي يتاجر في مواد البناء، كالاخشاب والجندل والنورة والحبال، ولوازم اخرى. ويتسم عبد الله، صاحب المحل، بين تجار السوق بجديته. وهو يدير تجارته باسلوب التجار الحديثين، حيث يعرف بانضباط مواعيد فتح الدكان. ويحلف الغربي انه يضبط ساعته على مواعيد فتح واغلاق دكان عبد الله. وهو التاجر الوحيد الذي يحمل في يده حقيبة دبلوماسية كلما جاء صباحاً الى السوق او غادر مساء. بعد اغلاق دكانه الذي يحرص على تسمية بـ"المعرض "وان كان لا يختلف في شيء عن سائر محلات السوق. وتأكيدا لهذه الصفة وضع على واجهة الدكان لوحة تحمل اسم "معرض النبلاء"

والى الشرق من "معرض النبلاء" تتتالى محلات الخدمات: حانوت الحلاق ابراهيم، ومحل عبد الله الايراني، الذي يجمع ما بين عيادة للاسنان وورشة لتصليح مواقد الكاز والدراجات الهوائية وكافة الاجهزة المتوفرة في المدينة حينئذ، ثم ماحة الصائغ، وحمدون الحلاو. وثمة في الزاوية الشرقية محل خياطة، وصاحبه ملاس العجم ـ امهر الخياطين وامرح رموز السوق رغم عاهته ـ فهو اصم!

والى الغرب منه دكان علي القاسمي، ثم دكان الغاوي وتبريزة الغربي وبينهما سكة البحر التي تتوزع على جانبيها دكاكين التمر ومنتجات اشجار النخيل الاخرى كالدعون والسلال والابسطة المصنوعة من السعف .

وتاتي بعد الغربي صندقة سويلم الخراصي، وهو رجل طويل وهزيل كان له صوت جهور، ويتولى الى جانب التجارة حراسة السوق. وقد اشتهر بكلمتي "من هناك؟" يصرخ بهما طوال الليل سواء شعر بدخول احد ام لا ـ فهي فقط كـ"الفزاعة" التي يضعها البدو حول حظائر مواشيهم لابعاد الحيوانات الضارية عنها .

وبسبب ذلك فقد صوته، الا انه ظل يحرس السوق واستبدل صوته بمشعل كهربائي قوي يصوبه على وجوه المارة.. يتحقق من شخصياتهم، خاصة اذا كان المار برفقة امرأة. ففي هذه الحالة يطيل التحقيق للتعرف على شخصية الرجل واستشفاف علاقته بالمرأة! ويقال ان البنيان ود "كيراه" وزع صدقة على فقراء الحارة عندما ضعف صوت سويلم وتوقف عن الصراخ باعلى صوته! والى يمينه يفترش المزروقي القطان الارض لصنع وعرض المراتب والاغطية القطنية واغطية الوسائد المزركشة التي تعلق على الجدران فوق اوتاد يتفنن النجارون في شذبها .

وفي الجدار الشرقي تتمدد مخازن الاخشاب وورش النجارة، وتحتل اكثر من نصف محلات تلك الجهة . ويشتهر نجارو السوق باشغال النقش والحفر على الابواب والنوافذ واعمال زخرفة المنازل مثل اوتاد الوسائد وعوارض الاسقف، وهم يختلفون عن بناة السفن. وتجاورها دكاكين معدات السفن ومواد صيانتها، مثل الحبال والصل والمراسي واقمشة الاشرعة والبكرات ومواد التشحيم والمضخات اليدوية وادوات الملاحة الاخرى .

وتصطف مجموعة من دكاكين المواد الغذائية في الجدار الجنوبي، بالاضافة الى هؤلاء هناك مطعم مسلم ومقهاية درويش ودكاكين الحرفيين وباعة المواد المنزلية!

وينتصب كشك جمعة الابيض، الذي يبع السجائر المستوردة والعطور والحلي المزيفة والملابس الداخلية والنعل وبعض الكماليات الخفيفة، وحيدا في الجهة الغربية المفتوحة. ودخول كشك الابيض الى السوق له قصة سمعها الصبي من زبائن الدكان .

فعلى غير عادة تجار السوق، طلب الابيض من نجاري السفن بناء كشك ضخم من خشب "الساج" الذي يستخدم لبناء السفن. وعندما اكتمل بناء الكشك استأجر عددا من الحمالين لنقله على اكتافهم الى سوق المسباخ، ولانه لم يراع عرض الطرق المباشرة من ورشات السفن الى السوق، تعذر عليهم نقله عبر الطريق القصير الذي يخترق الاحياء السكنية، واضطروا الى حمله بمحاذاة ساحل الخور لادخاله من جهة المسباخ الغربية المفتوحة. وهو طريق طوله ضعف طول السكة المباشرة التي تمر عبر منازل المدينة. ليس ذلك وحسب، فقد استحال على الحمالين في بعض المناطق المجاورة للساحل المرور دون النزول الى البحر والخوض بالكشك وتعريضه للبلل .

لكن مشاكل الابيض لم تنته عند ذلك الحد، فقد رفض اصحاب التبريزات وجود الكشك بجانبهم واعتبروه بدعة ستضر بمصالحهم! كما رفض اصحاب الدكاكين نصب الكشك بجوار دكاكينهم لكي لا يعيق انسياب حركة المتسوقين.. مما اضطره الى وضع الكشك وسط الجهة الغربية المفتوحة من المسباخ، وتحمل تكلفة بناء قاعدة اسمنتية لتحاشي مياه البحر التي تسيل الى داخل السوق في اوقات المد الاكبر "!

اما مسباح السوق فهو لباعة المواد الاستهلاكية اليومية واصحاب الصندقات الصغيرة. ويسود المسباخ توزيع ثابت لكل فئة من هؤلاء ولا يتعدى احد فيه على اماكن الآخرين: فباعة السمك استأثروا لانفسهم الركن الاقرب الى مداخل السوق من الاحياء الجنوبية والشرقية. وهو موقع

يخدمهم اكثر من غيره لان سكان هذه الاحياء هم اغلب زبائن باعة السمك، فمعظم سكان الاحياء الشمالية المطلة على البحر يحصلون على حاجاتهم من السمك مباشرة من الصيادين على الشاطئ (الخيسة) قبل نقله الى السوق .

اما المزارعون الذين يجلبون منتجاتهم من الخضراوات والفواكه الموسمية وطعام المواشي فلهم الجهة الشمالية. وتجري بائعات المواد الغذائية الجاهزة وراء الظل، ففي الصباح يتخذن من ظل الجدار الشرقي للسوق مكاناً لبسط الصواني وبعد الظهر ينتقلن الى الجهة العربية حيث يتركن الشمس خلف ظهورهن! وفي الوسط يعرض اصحاب الصندقات بضاعتهم التي تنحصر عادة في بيع أدوات صيد السمك البسيطة والملابس الجاهزة والادوات المنزلية .

–
المسباخ: سمى ذلك نتيجة لسيلان مياه البحر اثناء المد الكبير وتكون سبخة بعد انحسارها.
الجندل: اخشاب المنغروف او القرم تستخدم كعوارض اسقف المنازل التي تبنى من الحجارة والطين. الحلاو: صانع الحلوى. الصل: زيت كبد الحوت او القرش وتدهن به السفن . مقهاية: مقهى

سكة البنايين

سكة البنايين ـ الجزء الثاني من السوق ـ عالم آخر تردد الصبي كثيرا قبل دخوله. فمن فتحة احد الازقة على الركن الشمالي للمسباخ تنبعث روائح البخور والعطور الممتزجة بروائح التوابل النفاذة والتبغ وروث الجمال. وتزدحم السكة بالتجار والزبائن وقوافل الجمال وحمير النقل ونساء البنايين البيضاوات لابسات الساري كاشفات البطون .

فعلى جانبي فتحة السكة يتولى البلوش بيع التبغ والادوية الشعبية والعطارة، وتعتبر هذه السكة ايضا الفاصل بين حارة البلوش واحياء العرب. وكلما توغلت الى الداخل ازدادت محلات البنايين الذين يحتكرون تجارة بيع المواد الغذائية والمنسوجات بالجملة. وتتقاطع هذه السكة في امتدادها شمالاً نحو البحر مع طريق قوافل الجمال (سكة البوش) القادمة من مرفأ خور البطح في الشرق والمتجهة الى خارج المدينة في طريقها الى المناطق الداخلية من عمان .

ولان عدداً كبيراً من زبائن البنايين هم من سكان المناطق الداخلية، فان هذا الجزء من السوق يشهد حركة نقل نشطة حيث تتحرك يومياً القوافل محملة بالرز والسمن والطحين والاقمشة الحلبية وسواها من المنسوجات وضروريات الحياة .

ويشكل اصحاب السفن ايضا قوة شرائية رئيسية حيث يتزودون بالمؤن قبل السفر الى مناطق شمال الخليج العربي والهند وشرق أفريقيا. ويكون الدفع عادة على حساب مؤجل حتى عودتهم، لكن البنايين يحصّلون فوائد بنسبة محددة تغطي مدة الدين! وفي ظل غياب البنوك، يتولى البنايون، الى جانب التجارة العامة، مهام مصرفية عديدة، منها: الايداع ومنح القروض وتشغيل الاموال والصرافة وتحويل الاموال خاصة الى الهند وشراء الذهب والفضة .

ونظرا لارتباط المدينة القديم بالهند الذي رسخته السفن الصورية طوال مئات السنين وانفتاح المدينة على شبه القارة الهندية اكثر من انفتاحها على عمقها العربي، فقد كانت الدكاكين زاخرة باصناف المواد الاستهلاكية الهندية والعطور الشرقية والعنبر والعود والمسك وكافة اصناف التوابل والمواد الغذائية الهندية. وكانت محلات الصاغة التي تأثرت باساليب صناعة الذهب الهندية تنتج حليا ومشغولات فضية وذهبية ذات جودة عالية .وعرفت المدينة نتيجة لهذا الارتباط صناعة النسيج باستخدام خيوط البريسم، خاصة الشوادر والعمائم والازر، فضلا عن المطرزات الزاهية كالقبعة النسائية .

تعكس السوق بصورة جلية التركيبة السكانية للمدينة بكل تفاعلاتها وتفاوتها الاجتماعي وانتمائها العشائري او العرقي. ويشكل المسباخ مركز المدينة، فهو ليس فقط مكاناً للبيع والشراء وانما ايضا مكان يجمع الناس لمناقشة امور حياتهم المعيشية وسماع الاخبار السياسية، وهو بهذا يصوغ علاقات الناس الاجتماعية حيث يتبادل الناس فيه الاخبار والمنافع، ويتواصل فيه سكان المدينة مع سكان المناطق الاخرى التي تحصل على معظم حاجاتها من سوق صور. واذا كانت الانتماءات العشائرية تباعد بين منازل السكان فان سوق المسباخ تجمع بينهم وتطغى روابط العمل والمصالح التجارية على الاعراف والعصبيات القبلية او العرقية!

_____

الحلبية: اقمشة كانت تستورد من حلب بسورية. قبعة: عباءة مطرزة تلبسها النساء

صور

لن يكتمل مشهد المدينة إذا غفل ذكر مكانها وانتماءات سكانها القبلية والعرقية. والمشهد التالي ليس بحث أو دراسة لـتركيبة السكان الاجتماعية والعرقية وإنما هي صورة التقطت بعيني صبي في أواخر الستينات فكتب عنها فيما بعد مقالة، والتالي بعض ما جاء فيها ـ لكن قبل الشروع في قراءة هذا النص لزم التنويه انه من العبث البحث بين سطور هذا المشهد عن غير ما حفظته الذاكرة أو تحميله اكثر مما يحتمل. إن الغاية من الحديث عن الناس هنا لا يخرج عن إطار مشهد المدينة المكاني، فهم من صنعوا المدينة وأعطوها اسما، وهي اذ ذاك نتاج سكانها بتلاوينهم العرقية والقبلية :

تتكون صور "الكبرى" من ثلاثة أجزاء رئيسية هي: صور الساحل وبلاد صور والعيجة، وتقع بينهما بلدتي سنيسلة والشرية فضلا عن مجموعة قرى صغيرة إلى الجنوب من صور الساحل، أهمها مخروان وسكيكرة وابوقلع .

صور الساحل (ام قربمتين) هي شبه جزيرة رملية سطحها منخفض إلا من نتوء صخري في وسطها يسمى "القرحة ."ويطوق الخور بمجراه الافعواني ام قريمتين لمسافة خمسة كيلومترات تقريباً ويجعل منها شبه جزيرة لا يصلها بالبر سوى ممر ضيق لا يتجاوز عرضه نصف كيلومتر عند منطقة الرعينية إلى الغرب، وهو طريق الجمال الوحيد إلى خارج المدينة مرورا بالشرية وسنيسلة وبلاد صور ثم إلى المناطق الداخلية من عمان عبر وادي فليج. ويقال أن اسم "ام قريمتين" يعود إلى شجرتي قرم (منغروف) نبتتا وحيدتين على مدخل احد تفرعات الخور الضحلة إلى الجنوب من المدينة.

تشكل عشائر قبيلة الجنبة الاربع (العراما والمخانة والغيالين والفوارس) غالبية سكان الشطر الغربي من المدينة إلى جانب بعض الأسر العربية وعشيرة البلوش. ويشكل السكان ذوو الأصول الأفريقية نسبة كبيرة من سكان المدينة بكافة أجزائها واصبحوا جزءا من نسيجها القبلي، بينما ظل البلوش، الذين يعود وجودهم في المدينة لا كثر من مئة سنة، محتفظين بسماتهم القومية كاللغة وأزياء النساء وعادات العرس والأفراح الأخرى.

وتتوزع أحياء ام قريمتين ويتجاور سكانها حسب الانتماء العشائري والاحلاف القبلية. وتنقسم المدينة تبعا لذلك إلى أربعة أجزاء بعدد العشائر الرئيسية الأربع. فمخرمه يسكنها العراما، ويسكن المخانة مخا، والغيالين في حي يحمل اسمهم "حارة الغيالين"، في حين يسكن الفوارس حارة الفوارس وجزءاً من مصفية وبعض الحارات المحيطة بالسوق، علاوة على حارة البلوش عند الطرف الغربي من ام قريمتين. وتتناسب مساحات الأحياء طردياً مع عدد افراد كل عشيرة .

ويضم كل حي عدداً من الحارات تسمى عادة بأسماء الآسر، مثل حارة حتارشة وحارة المدالوة. بيد أن تقسيم هذا الجزء من المدينة لا يضع خطوطاً فاصلة بين العشائر حيث تختلط المساكن على خطوط التجاور أو التماس، كما توجد أحيانا اسر كاملة تسكن في مكان اقرب إلى أو وسط حارة عشيرة لا تنتمي إليها.

ولا شك أن التقسيم العشائري للجنبة كان غير بارز عندما نزحت من المناطق الشرقية وشرق المنطقة الوسطى للاستيطان في صور. وتتميز قبيلة الجنبة "الأم" بالانتشار الواسع على طول الساحل الشرقي من عمان، حيث تشكل أغلبية سكان المناطق الممتدة من رأس الحد مروراً

بالرويس وقميلة وجزيرة مصيرة والساحل الممتد من الدقم مرورا بالجازر إلى شويمية في محافظة ظفار .

وتتنوع أنشطة أفرادها الاقتصادية وأنماط حياتهم الاجتماعية، حيث تزاول العشائر التي تستوطن جدة الجنبة والمنطقة الممتدة ما بين عز ووادي حلفين على تخوم صحراء الربع الخالي رعي الماشية والجمال، وتتصف حياتهم بالترحال الدائم بحثا عن الماء والكلأ؛ بينما تنتقل كثير من الأسر في القيظ، عندما تعطل الرياح الموسمية الجنوبية الغربية التي تسبب هيجان البحر أنشطة صيد السمك في القرى الساحلية الممتدة من رأس الحد إلى الدقم، إلى مناطق مثل ادم وعز والحبي وسناو وبلاد بني بوعلي لحصاد النخيل وتعبئة التمر؛ ويمارس سكان المدن الحضرية كصور بناء السفن والملاحة عبر القارات والتجارة البحرية .

هذا التنوع بمختلف تجلياته وابتعاد بعض العشائر، كجنبة صور، عن مركز الثقل القبلي انعكس سلباً على قوة الانتماء للقبيلة الام واصاب تنظيمها القبلي بالترهل وأصبحت النظم العشائرية في كل وحدة اكثر قوة.. كما هو الحال في صور!

بلاد صور هي منطقة خصبة غنية بأشجار النخيل وتبعد عن صور الساحل بنحو أربعة كيلومترات، ويشكل هذا السهل دلتا وادي فليج حيث يبدأ في الاتساع عند منطقة الرفصة ويصل عرضه قبل مصبه في بحر العرب حوالي خمسة كيلومترات. ويفصل بلاد صور عن صور الساحل جبل يمتد بمحاذاة السهل حتى حصن سنيسلة المطل على البلدة المسمى باسمها. وتشكل بلاد صور ومزارعها ومياهها الوافرة ملاذا يلتجي اليه سكان الشطر الساحلي صيفا هربا من حرارة القيظ، ويقيم معظمهم داخل أو بجوار مزارع النخيل.

وتقع العيجة على جرف منخفض إلى الشرق من ام قريمتين ويفصل بينهما خور البطح، ويحيط بها من الشرق والجنوب سلسلة جبال تمتد شرقاً إلى منطقة شياع وجنوباً إلى وادي صالح. وتتميز بموقع استراتيجي حصين حيث يشكل الخور حاجزاً منيعا ضد المهاجمين من الغرب فضلاً عن وجود قلاع واستحكامات تنتشر فوق قمم الجبال المطلة على ام قريمتين، بينما يتحكم سكانها بدخول وخروج القوافل من الجهة الشرقية عبر بوابة سور يمتد من سفح الجبل إلى البحر .

وتسكن العيجة قبيلة بني بوعلي بالإضافة إلى عدد كبير من العمانيين الافارقة وبعض اسر الجنبة. ولا يختلف بني بو علي العيجة عن جنبة صور في شيء سوى ولائهم للقبيلة الام "بني بوعلي" التي تستوطن بلادا تحمل اسمها "بلاد بني بوعلي" الواقعة على بعد 120 كيلومتر إلى الجنوب في منطقة جعلان. ويتولى مشيختها "آل حمودة" وهم من الشيوخ الذين يعرفون بـ "التمائم "بسبب نفوذهم الواسع والقوي على سائر القبائل التي تنضوي تحت رايتهم. وكانوا حتى منتصف القرن العشرين يرفعون علماً اخضر دلالة على ارتباطهم المذهبي بالوهابيين! ومن المفارقات العجيبة أن آل حمودة يحظون في منطقتهم بدعم وولاء عشائر الجنبة التي تشكل في معظم تلك المناطق اغلبية السكان؛ مثل: أولاد ساعد والعراما وأولاد كاسب، وهل ريّى اكثر من ولائهم لابناء عمومتهم الجنبة في صور.

ومما لا شك فيه ان الطبيعة الجغرافية التي فرضت تقسيم صور الساحل وولاء سكان العيجة الشديد للقبيلة الام في بلاد بني بوعلي، التي لم تكن دائماً على وفاق مع عشائر الجنبة في صور، كانت السبب في اثارة الخلافات وخاصة حول حقوق استخدام الخور وحائل دون اختلاط الانساب الا فيما ندر .

وتشكل نهاية الخور الضحلة عند الجهة الغربية من ام قريمتين مستنقعات وحلة تزورها العديد من الطيور المهاجرة، وتأوي عددا آخر من الطيور المقيمة.. ابرزها النحناح المعروف محليا بـ"ابوغريبات" التي تتميز بطول سيقانها، فضلا عن الكثير من القواقع والاحياء المائية والقشريات كالسراطين وسواها. وعلاوة على ان الخور يشطر المدينة الى جزءين فانه ايضاً يعزل بعض اجزاء ام قريمتين عندما يهيج البحر ويرتفع المد، ويصبح الوصل الى بعض الاحياء كالسط والرشة ممكنا فقط بالخوض في المياه الى الخاصرة او في قوارب صغيرة تنحت من جذوع الاشجار الضخمة ويسمى مفردها "هوري.

يعتبر خور صور شرياناً حيوياً بالنسبة للمدينة. وليس ثمة مجافاة للحقيقة إذا قلت انه لولا خور البطح لما وجدت صور. فلقد كان مرفأ الخور يزدحم بالسفن التجارية الكبيرة العمانية والخليجية والهندية التي تقصد صور من موانئ أفريقيا والهند والخليج العربي.. تفرغ حمولتها من الأرز والبن والسمن والمواد الغذائية الأخرى بالإضافة إلى الأقمشة والأخشاب وكل ما تحتاج إليه المنطقة الشرقية .وكانت قوافل الجمال تنتظر بالمئات لنقل حمولتها من هذه المواد إلى المدن والقرى الداخلية من المنطقة الشرقية والوسطى حيث كانت صور هي مركز التجارة الرئيسي الذي تعبر من خلاله جميع واردات وصادرات المنطقة الشرقية من عمان. كما كانت قوافل الجمال تدخل صور بالمئات وهي محملة بالتمور وخاصة "البسر" والليمون الذي تنتجه المناطق الداخلية وتصدره عبر ميناء صور. وبلغ عدد أسطولها التجاري في النصف الأول من القرن الماضي حوالي مائة سفينة عابرة للقارات تجوب المواني والمدن الساحلية ما بين البصرة شمالاً والهند وسواحل أفريقيا جنوبا تحمل التمور واللبان والليمون والبن والأقمشة والأسماك والأخشاب والسمن والتوابل ومواد غذائية أخرى.

كما اعتمدت شهرة المدينة التاريخية على بناء السفن وكانت أحد اكبر موانى السفن الشراعية التجارية وابرز مراكز صناعتها على طول الساحل العماني. لقد كانت ورشات صناعة السفن تنتشر على طول ساحل المدينة ومدخل خور البطح وضفافة في خيصة العيجة والبطح والسط والرشة ومصفية.. تصنع أنواعاً مختلفة الأشكال والأحجام مثل البغلة او النموذج الاصغر حجماً منه "الغنجة والبوم "والبدن والسنبوك "والشوعي "وأنواعاً أخرى. وعلى بعد أمتار من هذه الورشات تقع مخازن أصحاب السفن والتجار التي تسمى "العمايز" "والتي تستخدم لتخزين عدة السفن من اشرع وقفافي وحبال ومراسٍ ومواد صيانة السفن أثناء موسم الصيف بالإضافة إلى استخدامها لتخزين البضائع ومواد صناعة السفن من خشب ومسامير وجلفاط وزيوت تشحيم مثل الصل والصيفة.

وتتفاوت أحجام السفن التجارية وتتباين أشكالها حسب نوعها والغرض المطلوب من بنائها، فالبغلة والغنجة والسنبوك والبوم تكون كبيرة الحجم، حيث يصل طول البغلة إلى مائة وخمسة وثلاثين قدماً وتتراوح حمولتها ما بين مائتين وأربعمائة طن، وتتجاوز حمولتها في بعض السفن خمسمائة طن، وتزود الأنواع الكبيرة منها بثلاث دقال. وتتميز البغلة بمؤخرة مرتفعة ويعتقد أن تصميمها تأثر بسفينة "الغليون" البرتغالية التي استولى عليها العمانيون خلال مطاردتهم للبرتغاليين في أفريقيا في منتصف القرن السابع عشر .

وتبنى السفن دون الاستعانة بأي تصاميم أو رسوم وإنما بطريقة التمييز البصري والخبرة. ويستغرق بناء السفينة من الحجم الكبير حوالي عشرة اشهر بينما تستغرق السفينة الصغيرة كالشوعي ما بين شهر واحد واربعة اشهر. وبالرغم من بساطة ـ أو ربما تخلف ـ الأدوات المستخدمة في بناء السفن الكبيرة، إلا أن مستوى تقنية هذه الصناعة و ضخامة السفينة المنجزة وتناسقها وقدرتها على عبور البحار العالية تخلق في النفس إعجابا وتقديرا دائمين.

وبعد اكتمال صنع السفينة، يدهن جسمها بالصل ويطلى بدنه بمادة مكونة من الزيت والشحم والراتنج الممزوج بنوع من بودرة الكلس وذلك لوقاية السفينة من الخرس الذي تسببه الديدان والعوالق البحرية. وكانت المدينة تشهد عرساً كبيراً تزف فيه السفينة إلى البحر وتقام فيه الاحتفالات وتقدم الولائم وتحيى الفنون الشعبية مثل " الشوباني " حيث يجتمع سكان المدينة للتعاون على سحب السفينة من الورشة إلى المياه خلال ارتفاع المد في صفوف تجر الحبال وهم يرددون الأهازيج والأغاني على قرع الطبول وزغاريد النساء.

إن رؤية هذه الهياكل الخشبية الضخمة وهي تنتصب في مياه الخور خلال موسم الصيف في الستينيات من القرن الماضي تخلق في النفس الزهو والافتخار بعراقة هذه المدينة وأصالة شعبها والدور العظيم الذي لعبته في التجارة البحرية خلال قرون عديدة.

كلمة اخيرة

كنت في مقدمة هذه المحاولة لتسجيل تجربتي مع الاعاقة سألت :ماذا اكتب؟ ولماذا اكتب؟ ولمن اكتب؟ واظن ان الإجابة الأولى عرفها القارئ.. سواء كانت لصالح المحاولة او ضدها! والقارئ حر في ان يشمها بما يشاء من نعوت، فانا لست ملاما واشرت منذ البداية اني لست كاتبا ولا الكتابة شرفاً أدعيه.

اما الإجابة الثانية فقد تبين لي اثناء الكتابة ان صديقي الاول لم يكن محقا فيما قاله عن كتابة السير الذاتية حين شبهها بـ"فضفضة" تزيل الكرب الذي يثقل صدر صاحبة ومتنفساً لاراحة البال، لأنها لم تكن "فضفضة" ولا اراحت البال، بل كانت كابوساً رزح على صدري طوال اشهر عانيت خلالهما كثيرا وانا اعصر محصلتي الادبية واللغوية لصياغة الجمل وترتيب الفقرات والكلمات في قوالب ترضيني. وكنت في احيان كثيرة اقف عاجزاً عن كتابة موقف او فكرة في جملة تناسب اهمية المضمون الذي اريد ان اعبر عنه .

ومرات قررت ان اتوقف لانه ليست ثمة ما يدعوني لتحمل هذا "الاضطهاد".. خاصة ان حياتي فيها ما يكفي من وجع، لكني اتراجع واعاود الكتابة ليس رغبة بها وانما حسرة ان يذهب كل الجهد الذي بذلته حتى تلك النقطة هباء. وهي تجربة اقنعتني ان الكتابة اذا كانت مهنة فهي متعبة، واذا كانت موهبة وابداعاً فذلك شعور لم اجربه. اما لمن اكتب فاظن ان من يقرأ هذه السطور الآن هو المعني بها ولا يعنيني من يكون، لكن آمل ان يكون مثله كثيرون!

واليوم وانا ابحث عن كلمات مناسبة لكتابة خاتمة تترك انطباعاً جيداً ينسي القارئ بعض القصور في هذا الكتاب، جلت بنظري عبر النافذة فشدني منظر الجبال الراسية وأمواج البحر وهي تتهادى كمقطع شعر طلي والأشجار وهي تتمايل رواءا أخضرا اختلط حفيفها مع قهقهات أطفال في الخارج وثرثرة المارة وصوت مركبة تعبر الطريق فحمدت الله كثيرا على نعمة العقل والسمع والبصر فبهما يمكن ترجمة جمال الكون إلى إبداع يجعل حفيف الشجر لحنا وريقا ومن تلاطم الأمواج لغة تحلق في فضاءات من المرح ومن شموخ الجبال الراسيات آية لترسيخ الإيمان في سويداء الفؤاد .

وقبلها استيقضت على نباح كلب اصبح صوته مألوفاً منذ سنين، ثم تابعت المدينة وهي تستيقظ عارية على دفء اشعة شمس نيسان.. تنفض عن جسدها غبار الفراش.. تغتسل لاستقبال يوم آخر، وعلى الريق ترشف فنجان قهوة او قدح شاي.

محمد عيد
مسقط في نيسان 2001

المكتبة الالكترونية

أطفال الخليج ذوي الاحتياجات الخاصة

www.gulfkids.com